النيل..
منابع الحزن

أمل سرور

رحلات

صفصافة
SAFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SAFSAFA.NET

النيل..

منابع الحزن

أمل سرور

أمل سرور/ كاتبة وصحفية مصرية مرموقة، تخرجت من جامعة القاهرة عام 1991؛ ترأست قسم التحقيقات بمجلة نصف الدنيا، وعدد من الإصدارات العربية مثل «الشباب، المصري اليوم"، كما تولت الإشراف على صفحة «ابن بطوطة» المعنية بالكتابة عن الرحلات والأسفار بجريدة الأهرام المسائي.، كما عملت ضمن فريق جريدة الخليج الإماراتية ونشرت جزء من أعمالها الخاصة بأدب الرحلات على صفحاتها.

حصلت على العديد من الجوائز في مجال الصحافة والإعلام، مثل جائزة جامعة جون هوبكنز من الولايات المتحدة الأمريكية 1998؛ جائزة نقابة الصحفيين المصريين عام 2001 و2006؛ وجائزة مصطفى أمين وعلي أمين عن مجمل أعمالها؛ جائزة دبي للصحافة العربية 2006.

.....

النيل.. منابع الحزن

طبعة 2023

رقم الإيـــــداع: 2023/1575

الترقيم الدولي: 978-977-821-313-3

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

صورة الغلاف: أ.حسام دياب

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

النيل..

منابع الحزن

أمل سرور

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

سرور، أمل
النيل.. منابع الحزن / أمل سرور
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، 2023
224 ص، 20 سم
تدمك 978-977-821-313-3
1- أفريقيا - وصف ورحلات
أ- العنوان 916

رقم الإيداع: 2023/1575

المحتويـــــــات

11	**مقدمة:** على حدود بيتنا
23	**الفصل الأول** الحبشة.. منابع القلق
39	**الفصل الثاني** «الآباي».. أبونا في الأعالي
51	**الفصل الثالث** التيه خلف السدود
63	**الفصل الرابع** الطيب والشرير
89	**الفصل الخامس** «سد الألفية»
103	**الفصل السادس** الأيادي الأخرى
113	**الفصل السابع** بين «قدس إفريقيا» و«الفلاشا»

129 **الفصل الثامن**
على أطلال النيل

141 **الفصل التاسع**
هنود ويهود وأسود

153 **الفصل العاشر**
بين عجائب المزايمارا

169 **الفصل الحادي عشر**
إلى الكونغو

181 **الفصل الثاني عشر**
بيرة وفقر

197 **الفصل الثالث عشر**
وختامها صهيوني

223 **كلمة أخيرة**

الإهداء

إلى النبي والقديس، فيلسوفي الحكيم.

وإلى «الأباي» أبي ثروت سرور.

وصاحبة الجلالة سناء البيسي

وكل من حلموا بأن ترى سطور أوراقي النور.

إليهم جميعًا وإلى مولاي وروحي في يده

ساكنًا بين حنايا القلب.

ابني إسلام.

شكر واجب

هذا العمل الذي طال انتظاره كثيرًا ليس ملكي وحدي بل كان وما زال الفنان حسام دياب رئيس شعبة المصورين في نقابة الصحفيين المصريين، والحاصل على جوائز عديدة في فن التصوير، شريكًا في كل سطر من سطور هذا العمل الذي يعد ثمرة جهدنا وتعبنا ودراستنا وتخطيطنا لسنوات طويلة.

كل الشكر والاحترام والتقدير لرفيق الدرب والمشوار.. حسام دياب.

مقدمة

على حدود بيتنا

أرض سوداء حارقة ومحترقة، وجوه سمراء وقلوب ناصعة البياض، عالم مغلق ودنيا غامضة، حالة فريدة من نوعها، تركيبة معجونة بالشجن، ممزوجة بدنيا المتناقضات، وليست خطوط طول وعرض، غابات كثيفة متشابكة مبهمة وواضحة في آن، للصياد أو الشاعر لا تتعدى سوى فسحة يوم أو حالة من الدهشة والانسجام، أما لمن يعيش فيها فهي قدر مجهول ومصير محتوم.

لم أهوَ غابات الشعراء؛ فهي كثيرًا ما تكون حالمة لا مكان لها سوى بين كتل السحاب المتراكمة، بل أومن تمامًا بأن أقصر الطرق توصيلًا إلى الحقيقة هي تلك التي تسير عبر الخط الإنساني، لا الخط الحديدي.

وما أسهل الوصول إليها إذا ما اختارت قدماك الوقوف عند الجماعات البشرية.

البداية هنا، من عند الوجه الأسمر والضفائر المجعدة والعيون التي تتكلم وحدها، من عند الحقيقة والبساطة والتلقائية.

البداية من الغابة العذراء، من إفريقيا.

إذًا هي القارة العظيمة التي تقف بشموخ واعتزاز على خريطة العالم، هي القارة التي شهدت أعتى وأعنف الموجات الاستعمارية واستطاعت بجدارة أن تنتفض وتنتزع حقوقها وحرياتها.

هي قارة الزعيم الجنوب إفريقي نيسلون مانديلا، والزعيم

الكيني جومو كينياتا، وهي تلك التي استحوذت على اهتمام الزعيم الراحل جمال عبد الناصر الذي قال عنها في كتابه فلسفة الثورة: «شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضًا أن يكون فيها صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا وعلينا سواء أردنا أم لم نرد، بالإضافة لضرورة تحمل مسؤولياتنا في نشر الوعي والحضارة في أعماق الغابة العذراء، علاوة علي أن النيل شريان الحياة لوطننا جميعًا، يستمد ماءه من قبل القارة».

الرحلة إلى القارة الإفريقية مختلفة بكل المقاييس عن أي رحلة قمت بها إلى أي مكان في العالم، وبقدر اختلافها واحتفاظها بمذاق خاص وخصوصية أشد، بقدر ما جاءت في أحيان محزنة بل مفجعة، وفي أخرى مليئة بالمفاجآت التي تصل إلى حد الصدمات!

ما إن أحط قدمًا على الأراضي السمراء، إلا تنتابني حالة تشبه كثيرًا فكرة دخولي إلى المنزل بعد يوم عمل شاق، فلا مكان للغربة أو خوف من الوحدة أو قلق من العودة من تلك الأراضي بخيبة أمل، خالية الوفاض من إنجاز عمل صحفي، في النهاية البيت واحد والدار أمان.

بهذه الحالة النفسية خطوت وزميلي المصور الفنان حسام دياب بقارة إفريقيا، التي ننتمي إليها حتى النخاع والتي تمثل لنا أمنًا قوميًّا واستراتيجيًّا أيضًا؛ فهي القارة التي نستمد منها شرايين وأوردة حياتنا، من عندها يندفع نهرنا العظيم الخالد

منسابًا مهرولًا إلى أراضينا يخصّبها بالماء والخير ويدفئنا بالأمن والأمان.

أما نحن فنمثل لها الكثير والكثير، خاصة عندما كنا في وقت من الأوقات قلبها ونبض حياتها، بل كانت بلادها تلقبنا بل تفرض علينا لقب الأم؛ عندما وقفنا معها نساندها وندعم مواقفها ضد كل أشكال القوى الاستعمارية التي اغتصبت ونهبت أراضيها وثرواتها لفترة طويلة من الدهر.

إنها إفريقيا يا سادة. البيت الكبير الذي ننتمي اليه بل نعتبر جزءًا لا يتجزأ من نسيجه، امتدادنا الحقيقي وأصلنا الذي ربما تناسيناه وأهملناه كثيرًا فلم يملك سوى أن يعطينا ظهره.

مصر التي ظل دعمها يتدفق إلى أعماق القارة في الغرب والوسط والجنوب، مع غانا وغينيا ونيجيريا والكونغو (زائير)، عندما قاومت حركات الانفصال بعد الاستقلال خصوصًا في نيجيريا (منطقة بيافرا) حيث البترول، والكونغو حيث توجد ثروات معدنية ضخمة في كاتنجا، وفي جنوب السودان حيث التوجيه البريطاني لفصله واعتباره دولة تتوجه نحو المحيط الهندي، حيث شرق إفريقيا البريطانية كينيا - أوغندا - تنزانيا.

وبعد استقلال معظم الدول الإفريقية كان لا بد أن يكون الدعم المصري لإفريقيا من نوع جديد، فأنشئ الصندوق الفني المصري للتعاون مع الدول الإفريقية، حيث كانت المعونة الفنية

المتمثلة في الخبراء والفنيين والأساتذة، خصوصًا من الأزهر والأطباء وأساتذة الجامعات والعمالة الفنية، وإقامة السدود وتوليد الكهرباء المائية وغيرها من المشروعات.

مصر التي أنشأت في عهد عبد الناصر أكثر من 52 مكتبًا لثلاث شركات قطاع عام تعمل في مجال التجارة الخارجية هي: شركات النصر للتصدير والاستيراد، ولها النصيب الأكبر، مصر للتجارة الخارجية، ومصر للاستيراد والتصدير. وكان لتلك الفروع المصرية دور مهم في الترويج للمنتجات المصرية.

شئنا أم أبينا، علينا أن نعترف بأننا قد تأخرنا وقصرنا وأهملنا وتجاهلنا وتعالينا، لنجد أنفسنا في النهاية في موقف لا نحسد عليه، عندما هبت وأفاقت دول منابع النيل لترفع صوتها عاليًا مطالبة بإعادة النظر في حصص مياهه والاتفاقيات التي تحكم هذا الأمر، بل تجتمع وتتفاوض في كينشاسا وشرم الشيخ وعنتيبي من أجل إنشاء مفوضية لدول حوض النيل.

ومع إصرارنا على رفض الاتفاقية الإطارية التي تقرر حصص المياه ما بين دول المنابع ودولتي المصب مصر والسودان، وقّعت ست دول كان آخرها بورندي على الاتفاقية دون الحصول على موافقتنا، لنجد أنفسنا أمام الطامة الكبرى وهي بدء إثيوبيا بالفعل في بناء سد النهضة، فقامت الدنيا ولم تقعد وكأنه كان قرارًا مفاجئًا لم نسمع به منذ سنوات!

جولات عديدة كان شغلنا الشاغل فيها هو ملف النيل، والأهم هو حالة الرصد التي وقعنا فيها دون أي استئذان، لنجد أنفسنا مسيرين لا مخيرين خاصة أن الأمر يتعلق برصد نشاط ملموس لعدونا اللدود إسرائيل في قلب القارة الإفريقية بشكل عام ودول حوض النيل بشكل خاص.

وأعتقد أنه آن الأوان لنعرف ولنتعرف جميعًا على حجمنا الحقيقي الذي صنعناه بأيدينا، وعلى موقع الآخرين الذين صنعوه هم أيضًا بأيديهم لنجيب عن أسئلة غاية في الأهمية ألا وهي: أين نحن؟ وماذا قدمنا؟ وماذا سنجني؟ وأين هم؟ وماذا قدموا؟ وماذا سيجنون؟ وهل صحيح أن الميعاد قد فات وأننا لم نعد نملك سوى البكاء على اللبن المسكوب؟

إذًا كان نهر النيل مربط فرس في رحلاتنا، التي بدأناها مع بداية الأزمة، توجهنا إلى أعالي النيل وإثيوبيا ووقفنا عند شلالات النيل الأزرق وبحيرة تانا لنشهد لحظة ميلاد النهر، ومنه إلى سد الألفية لنكشف أسراره التي باتت وكأنها أساطير إثيوبية، وإلى مدينة «مكالي» التي تحوي سدودًا على أعالي النيل الأزرق تبنيها أياد إسرائيلية. ذهبنا، ووصلنا إلى فيكتوريا العظيمة في «جنجا» الأوغندية، ولهثنا وراء مياهه الخالدة التي تجري في الأراضي الكينية ومنها إلى التربة التنزانية لنرتحل منها إلى بلاد الكونغو.

لم نكتفِ بالرصد والمشاهدة، ولكننا كنا حريصين على أن نستمع إلى آراء الشارع الإفريقي الأسمر ما بين المسؤولين

والمواطنين العاديين.

تركنا الملعب الإفريقي مفتوحًا على مصراعيه لألد أعدائنا، أمريكا تغمز بالعينين لتل أبيب، والتل يضرب بأقدام ثابتة ليحرز الأهداف المتتالية في المرمى، تبدو الكرة في ملعبنا ولكننا ننجح باقتدار في أن نضيع الأهداف، لنجد أنفسنا قد خرجنا من دور الأدوار الأولى بجدارة لا نحسد عليها. التواجد الإسرائيلي في القارة السمراء عامة ودول منابع النيل بشكل خاص، ملف شغلني منذ أن قمت بأول رحلة إليها في التسعينيات.

أتذكر جيدًا أنني اصطدمت بواقع مرير في أرض التراب والأزهار «كينيا»، عندما كنت أبحث عن شركة سياحية تنظم لي رحلة سفاري إلى أدغال ذلك البلد، لأفاجأ بالعلم الإسرائيلي يرفرف فوق مكاتب موظفي الشركات، لدرجة أنني اعتقدت أنني قد ضللت طريقي وذهبت إلى تل أبيب بدلًا من كينيا.

تابعت وقرأت وعرفت ورأيت وسمعت ونبهت عبر الكثير من الأدلة الدامغة، على تلك الحرب الصهيونية ضد مصر في القارة العذراء، التي يكشف جانب منها نظرة سريعة متأملة لجولة ليبرمان وزير الخارجية الإسرائيلي -الذي هدد مصر يومًا ما بضرب السد العالي- في الأراضي الإثيوبية منذ سنوات قليلة، ورافقه في جولته وفد دبلوماسي من عشرين شخصًا وعشرين رجل أعمال، فضلًا عن ممثلين للصناعات العسكرية وخبراء في الري تحت إشراف وتنظيم منظمة التبادل اليهودية الأمريكية،

والتي تعد إحدى أكبر منظمات اللوبي اليهودي بأمريكا تجدها قد أسفرت عن افتتاح مركز «بوتاجيرا» للمحاصيل البستانية، وهو مشروع ثلاثي يضم إثيوبيا وإسرائيل وهيئة المعونة الأمريكية. هذا غير المشاورات التي عقدت بين ليبرمان ونظيره الإثيوبي سيوم مسفين، والتي انتهت بتوقيع مراسم اتفاق يساعد البلدين على بحث الاهتمامات المشتركة من أجل مزيد من التعاون في القضايا الإقليمية والدولية.

أتذكر جيدًا ما قاله ليبرمان، ردًّا على قادة الدول الإفريقية الذين وجهوا اللوم له لإهمال السياسة الخارجية الإسرائيلية لشؤون القارة السمراء: «إن الزيارة لدول حوض النيل وخاصة إثيوبيا ناجحة وفوق كل التوقعات، على الرغم من أن إسرائيل أهملت في الماضي دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا وركزت على دول الغرب، وبهذا خسرت دول حصتها من الاقتصاد العالمي تزيد على 40%، وعندما زارت جولدا مائير في نهاية الستينيات القارة السمراء، كان لإسرائيل 30 سفارة في إفريقيا، بينما يوجد لديها اليوم فقط تسع سفارات وخلال هذه السنين قام بشغل الفراغ أعداء إسرائيل».

وما خفي كان أعظم، وما هو مسكوت عنه ربما تقف أمامه وجهًا لوجه عبر ما تحتضنه سطور تلك الأوراق التي تحملها بين يديك، والتي ربما قد تأخرت في الوصول إليك ولكن ليس بقدر تأخر مصر وتقصيرها الشديد في الالتفات والانتباه لأمنها

القومي، المتمثل في نهرها الحكيم الذي لم نعرف عنه سوى تلك العبارة التي قالها الفيلسوف هيرودوت «مصر هبة النيل».

ماذا فعلنا؟ وما الذي زرعناه لنحصده ونجني ثماره في قارتنا العذراء التي تحتضن بين حنايا قلبها شريان حياتنا؟ ماذا قدمنا أمس لنحصده اليوم ونبني عليه أساس المستقبل؟

رغم قتامة الصورة إلا أن ثمة أملًا كان يضيء لي الطريق عندما كان يعرف أحد تلك الوجوه السمراء والعيون التي تتكلم وحدها بأنني مصرية، سرعان ما ترتسم الابتسامة على الوجوه وتملع الدموع في العيون وكلمة واحدة تخترق أذنيك، عندما تنطلق الكلمات من أفواههم السمراء قائلة بشجن «عبد الناصر». ولعل أول زيارة للزعيم الإفريقي نيلسون مانديلا لمصر قد لخصت هذا الأمر، عندما حط بقدميه على أرض مطار القاهرة ومنه توجه مباشرة الى قبر عبد الناصر، الذي وقف أمامه صامتًا لعدة دقائق ثم قال لمرافقيه من المصريين إنه كان يتمنى أن يزور مصر في حياة عبد الناصر ليحظى بشرف استقباله له ورؤيته.

وحين فازت جنوب إفريقيا بتنظيم كأس العالم في المنافسة التي دخلتها مع مصر في الفيفا، قال مانديلا تعليقًا علي خسارة مصر: لو كان عبد الناصر حيًّا لما جرؤ أحد من الأفارقة على الدخول مع مصر في منافسة، حتى وإن كانت أشرف المنافسات وأعظمها.

رحلاتنا إلى بلاد «السود والأسود» محاولة لإعادة قراءة إفريقيا كما يجب أن تكون. إن نجحنا فهذا كل ما نتمناه وإن فشلنا فليبق لنا شرف المحاولة.

الفصل الأول

الحبشة.. منابع القلق

الطريق إلى منابع النيل، يبدأ من هنا، من عند تلك الأرض السمراء المعجونة ملامحها بلون الطمي الأصيل.

من عند الشواهق والجبال التي تتحطم عليها الرياح وتتنازع فوقها براكين من السحب المزدحمة لتصب عليها سيولًا من المياه.

من عند دموع «إيزيس» التي انسكبت منهمرة على فراق الحبيب «أوزوريس» بعد أن مزق أوصاله إله الشر «ست»، من عند تلك النافورة التي تضخ ما يقرب من 1600 مليمتر مكعبٍ من المياه، حيث لا يشق سطحها مجداف ولا تنتزع صنارة سمكًا ولا يجرؤ إنسان على السباحة فيها.

من عند رسولها الذي ترسله إلينا حاملًا الخير والنماء والخصب.

من عند سقف إفريقيا وحامي حمانا المائي، من عند اختلاط العروق والحضارات والأديان التي كانت تصلها بالبحر الأحمر والصحراء النوبية.

البداية؛ من أرض الحبشة أو إثيوبيا.

3 ساعات ونصف الساعة هي المدة الزمنية التي قطعتها والفنان حسام دياب للوصول إلى المحطة الأولى في رحلتنا إلى منابع النيل.

ما إن حطت عجلات طائرتنا على أرض العاصمة الإثيوبية «أديس أبابا»، إلا وحطت معها حالة من التوتر والقلق بل والعديد من علامات الاستفهام التي حاصرتنا منذ أن قررنا فيها القيام بجولتنا الأولى، خاصة وقد سيطرت حالة من حالات الفتور وربما التوجس على العلاقات المصرية الإثيوبية في الفترة الأخيرة. وهو ما بدا واضحًا في تعامل السفارة الإثيوبية بالقاهرة معنا، والتأخير الذي وصل إلى حد المماطلة من أجل الحصول على تأشيرات دخول إثيوبيا. ولولا تدخل وزارة الخارجية المصرية ممثلة في السفيرة منى عمر التي كانت تشغل وقتها منصب مساعد وزير الخارجية للشؤون الإفريقية لما كنا حصلنا عليها، وما كانت سطورنا عرفت للنور طريقًا.

من هنا بدت أولى علامات الاستفهام التي لم نود الإجابة عليها بشيء من سوء النية مسبقًا، لنرجع الأسباب إلى حالة الشد والجذب التي وقعت مؤخرًا بشأن تعديل الاتفاقيات التاريخية الخاصة بتوزيع مياه النيل ما بين دول المنبع والمصب.

فقط قررنا أن نترك العنان لأحداث جولتنا لتجيب ليس فقط عما تعرضنا إليه، ولكن عن العديد من الأسئلة التي وضعناها نصب أعيننا منذ أن غادرنا مطار القاهرة الدولي.

إذ ما هي حقيقة الخلاف بين دول المصب: مصر والسودان، ودول المنبع: إثيوبيا، كينيا، أوغندا، الكونغو، بوروندي، تنزانيا، رواندا، كينيا، إريتريا، خاصة أن الأخيرة ترى أن مياه نهر النيل

وهو أطول أنهار العالم (6695 كم) تنبع من أراضيها، وبالتالي فهي ملك لها ويجب أن تستفيد منها بشكل أكبر. لذلك فإن تلك الدول وعلى رأسها إثيوبيا تطالب بإعادة تقسيم المياه وإنشاء مفوضية لدول حوض النيل، وهو ما رفضت مصر التوقيع عليه للمحافظة على حقوقها التاريخية والامتيازات القانونية الخاصة بها.

«هنا مربط الفرس» كما يقولون، والبداية التي علينا أن ننطلق منها لنسمع الصوت الإثيوبي متحدثا ومجيبًا عن تساؤلات مباشرة تحتاج إلى إجابات صريحة ومنها: هل تقصد بلاد الحبشة التي ربطتنا بها علاقات تاريخية عبر العصور، المساس بحصة مصر في مياه النيل خاصةً أننا نستمد منها 85% من مياهنا، الأمر الذي يهدد أمننا القومي؟ هل بالفعل قد جاء اليوم الذي تشكل فيه الحبشة خطرًا على حياتنا؟ وما هي حكاية السدود التي نسمع عنها بين الحين والآخر، والتي تنوي إثيوبيا إقامتها مباشرة على النيل الأزرق لتحصل على المياه والكهرباء وتمنع عنا شريان الحياة؟ وهل صحيح أنها وضعت يدها في يد إسرائيل لتبني لها سدودًا عند ميلاد نهرنا العظيم، ولماذا إسرائيل تحديدًا؟

وأين دور مصر التاريخي والثقافي والاقتصادي والسياسي الذي تلعبه في هذا البلد؟ هل نسينا سويًّا العلاقات التاريخية والدينية التي ربطت بين الكنيستين الأرثوذكسية والإثيوبية، والتي تعود بدايتها إلى القرن الرابع الميلادي؟ وهل تجاهل الإثيوبيون

الزيارة التاريخية التي قام بها البابا شنودة إليهم في أبريل من عام 2008 وشهدت بروتوكولات تعاون وتبادل للزيارات بين الكنيستين؟

وأخيرًا: هل هناك من يدق طبول حرب مياه قادمة؟

بهذا العدد من علامات الاستفهام دخلنا العاصمة الإثيوبية «أديس أبابا»،

لتبدأ رحلتنا الأولى التي تزامنت مع زيارة وفد رسمي مصري ترأسته د. فايزة أبو النجا، التي كانت تشغل منصب وزيرة التعاون الدولي، ووزير الزراعة أمين أباظة ولفيف من رجال الأعمال والمستثمرين المصريين إلى إثيوبيا لبحث سبل التعاون الاقتصادي والتجاري مع نظرائهم الإثيوبيين.

لم نلتقط أنفاسنا طوال 3 أيام متواصلة، تابعنا فيها لحظة بلحظة تفاصيل تلك الزيارة التي كانت بالنسبة لنا فرصة ذهبية لنلتقي وأكبر عدد من الوزراء والمسؤولين من الجانب الإثيوبي، ولعلها فسرت لنا أيضًا موقف السفارة الإثيوبية بالقاهرة فيما يخص منحنا تأشيرة الدخول، خاصةً عندما اقتربنا من أذن جيرمابيريو الذي كان يشغل منصب وزير التجارة والصناعة الإثيوبي، لنطلب منه تحديد موعد لإجراء حوار معه، فاستقبل الرجل طلبنا بابتسامة شاحبة قائلًا بصوت استطاع أن يسكت الحاضرين لينصتوا إليه: «لا شك أننا نحترم الصحافة المصرية

وعلى رأسها جريدة الأهرام العريقة، ولكننا تابعنا كل ما نشر عبر صفحات الإعلام المصري عن إثيوبيا في الفترة الأخيرة، وفوجئنا بأن هناك هجومًا ضاريًا وعنيفًا تجاهنا، وتعجبنا للاتهامات التي يرشقنا بها الإعلام المصري خاصة فيما يتعلق بزيارة وزير الخارجية الإسرائيلي لبلادنا، الأمر الأشد خطورة هو ما تم نقله بشكل خاطئ عن صحف إثيوبية، بل إنني قرأت في إحدى الصحف المصرية من يطالب بضرب إثيوبيا عسكريًّا، وأعتقد أن تلك المعالجة الأمنية العنيفة ربما قد أثرت على العلاقات بين الشعبين المصري والإثيوبي، وهذا ما لم نكن نتمناه خاصة أننا يربط بيننا رباط أبدي مقدس؛ تاريخي وديني».

عندما أنهى جيرما حديثه كادت أن تفتح حلقة نقاشية بين كل الحاضرين من الجانب الإثيوبي عن الصحافة المصرية. هنا فقط لم أشعر بنفسي عندما وجدتني أتحدث بثبات وقوة: «نحن لسنا في موقف اتهام أو وضع دفاع عن النفس، ولكن هناك ما كتب في إعلامنا وأثار استياءكم فكان لكم حق الرد على الأقل من خلال سفارتكم في القاهرة، ولأننا حريصون على التاريخ الذي يربط بين البلدين فنحن بينكم الآن ممثلين للإعلام المصري، وقطعنا كل هذه المسافة ليس من أجل متابعة زيارة الوفد الرسمي المصري إلى أرض إثيوبيا، ولكن لسماع الصوت الإثيوبي من خلالكم لوضع الأمور في نصابها وتوضيح كثير من الحقائق للرأي العام المصري والإثيوبي معًا، ونعتقد أن تاريخ العلاقات بين مصر والحبشة يستحق الترحيب بنا على هذه الأرض الشقيقة».

نظرة رفيق دربي حسام دياب جعلتني أشعر بأن حديثي في موضعه، بل إننا أحرزنا هدفًا صحيحًا في المرمى، فسرعان ما تبدلت الوجوه لترتسم عليها ملامح الرضا والترحيب، لنبدأ في اقتناص مواعيد لمقابلاتنا مع الوزراء والتي باتت بعد أول مواجهة من أيسر ما يمكن .

قلب أوروبي بوجه صيني

«شارع بولي رود» في قلب العاصمة الإثيوبية، كفيل بأن يجعلك تشعر بأنك على أرض أوروبية ولست في دولة مصنفة بأنها تعيش تحت خط الفقر، وأن التقرير الذي أصدرته منظمة الإغاثة الدولية «أوكسفام» البريطانية والذي ذكرت فيه أن نحو 6.2 ملايين إثيوبي معرض للنقص في الغذاء بسبب الجفاف الذي تتعرض له البلاد ما هو إلا كذب وافتراء.

إذًا ما كل هذا العدد من المطاعم والكافيتريات التي ترقى لدرجة خمسة نجوم، والفنادق التي لا تقل عن أربعة نجوم، والمراكز التجارية التي تشهد أحدث الموديلات في الملابس، وأجهزة الكمبيوتر، والهواتف، والأهم من ذلك الأبنية الشاهقة التي ترقى أن تصنف كناطحات سحاب، وشركات السياحة التي تصطدم بها عيناك في كل مكان، والسيارات الفارهة التي لم نرها في مصر حتى الآن، والأهم من ذلك حركة البناء والتعمير الجديدة التي

تشهدها العاصمة الإثيوبية والتي تتمثل في العمارات التي يتم العمل فيها على قدم وساق؟

حركة شارع «بولي رود» لا تستطيع أن تمر عليك مرور الكرام، فهي إن دلت فلن تدل إلا على سياسة انفتاح جديدة وضع أسسها باحتراف وجدية مليس زيناوي الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء الإثيوبي والحاكم الفعلي للبلاد في أثناء زيارتنا الأولى، ذلك الرجل الذي فتح باب الاستثمار الأجنبي في كل المجالات على مصراعيه، بدءًا من «مطار أديس أبابا» الذي قامت بتنفيذه وتمويله وافتتاحه دولة الكويت، مرورًا بالمناطق الصناعية التي اقتسمتها تركيا والهند والصين وحتى شبكات الطرق والكباري والبنية التحتية التي احتكرتها الصين، فضلًا عن دخول إيطاليا بقوة في مجال الصناعات والكيماويات. وبالطبع تستطيع أن تعلم مدى قوة المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وبقية دول الخليج ما إن تأخذك قدماك إلى واحد من محال «السوبر ماركت» التي تجد فيها كل ما لذ وطاب من مختلف الأشكال والألوان والأنواع والتي تم استيرادها من السعودية ودول الخليج. والحق أن البحث عن منتج مصري من السلع الاستهلاكية داخل تلك النوعية من السوبر ماركات كان أمرًا صعبًا بل ربما يكون مجهدًا، فقط أخيرًا تجد بعض علب العصائر وأنواعًا من الشيكولاتة التي لم نرها أو نسمع عنها من قبل، وكثيرًا من اللبان!

الغريب أنه كلما أخذتك أقدامك للتجوال في شوارع أديس

أبابا، ينتابك إحساس بأن قائد الطائرة ربما ضل طريقه وحط بطائرته في مطار بكين الدولي، إذ ما كل هذه الوجوه الصينية التي تصطدم بها وكأنهم أسراب من الجراد انتشر بل استفحل؟ ما الذي يجذب تلك الأعداد الغفيرة من الصينيين ليشقوا «قلب أديس أبابا» بهذا الشكل؟

مقيمون ويتحركون في الشوارع وكأنهم السكان الأصليون، وربما أيضًا قد أجادوا اللغة الأمهرية التي يتكلم بها الأحباش.

لم تطل حيرتنا وسرعان ما وصلتنا الإجابة؛ بأنهم وجدوا في إثيوبيا ضالتهم المنشودة، تلك الأرض البكر العذراء المتثنية التي «خرطها خراط الصبايا».

ولأنهم أذكياء ويعرفون من أين تؤكل الكتف، نجحوا في أن يضعوا لأنفسهم قدمًا بل أقدامًا في هذا البلد الذي يبدأ في النمو والنهوض بشكل سريع، بل فازوا بنصيب الأسد في كعكة الاستثمارات الأجنبية التي أعدها رئيس الوزراء الإثيوبي. ولأن الأرقام والمشروعات على أرض الواقع لا تكذب ولا حتى تتجمل، حصلنا على معلومات وأرقام عن استثمارات دولة الصين وحدها في إثيوبيا، فقط لنتأمل ماذا فعلت الأيدي الصينية الناعمة في الأرض السمراء الصلبة.

بداية علينا أن نعلم بأن العلاقات ما بين الصين وإثيوبيا تمتد إلى ما بعد 20 عامًا من قيام دولة الصين بزعامة ماوتسي

تونج. وهذه العلاقات لم تتبلور بشكل ملحوظ إلا مع استيلاء منجستو على الحكم في إثيوبيا بعد أن أطاح بحكم الإمبراطور هيلاسيلاسي عام 1977.

ومع قدوم الجبهة الثورية الديمقراطية للشعوب الإثيوبية للحكم بعد عام 1992، بدأت العلاقات بين البلدين تأخذ شكلًا جديدًا سعى فيه الطرفان إلى التعاون الفعلي في جميع الميادين، وهي نفس الفترة التي بدأت تسعى فيها الصين للإطلال على العالم الخارجي وتحديدًا دول العالم الثالث.

وبعيدًا عن السدود التي أقامتها الصين لإثيوبيا، وسنتكلم عنها بشيء من التفصيل في سطور مقبلة، بدأت الصين تدخل في مجال الاتصالات لتتولى هيئة الاتصالات الصينية Z.T.E إقامة جميع مشروعات الاتصالات التليفونية سواء الشبكات الأرضية أو شبكات المحمول بها، وتعتبر الشريك الأساسي لهيئة الاتصالات الإثيوبية.

ووقعت الهيئتان اتفاقا بقيمة 10 ملايين دولار لإقامة جزء من البنية التحتية الخاصة بحديقة تكنولوجيا المعلومات IT PARK، وهي المشروع الذي طال انتظاره وخططت له الحكومة الإثيوبية ويشبه إلى حد كبير مشروع القرية الذكية في مصر.

وعلى المستوى الاقتصادي والصناعي، فإن التعاون الثنائي بلغ مرحلة متقدمة جدًّا، وعلى سيبل المثال لا الحصر تقوم شركة

صينية بتجميع سيارات الركوب تحت اسم «آباي»، وهو الاسم الذي يطلقه الإثيوبيون على النيل الأزرق بلغتهم الأمهرية، كما تقوم الحكومة الإثيوبية باستيراد حافلات النقل العام من الصين لرخص ثمنها وجودة صناعتها، كما وقعت وزارة المالية والتنمية الاقتصادية اتفاقًا مع بنك الصين للتنمية C.D.B لتحصل بمقتضاه إثيوبيا على قرض بقيمة 400 مليون دولار، لتنفيذ مشروعات البنية التحتية والطاقة والنقل والاتصالات والتعدين والصناعة والزراعة والتنمية الريفية بشرط قيام شركات صينية بتنفيذ هذه المشروعات.

وما خفي كان أعظم، فالإثيوبيون أسسوا مجموعة من المصانع لإنتاج الزجاج بتمويل صيني أقامته شركة «هانسوم» الصينية، وهو الأول من نوعه في إثيوبيا، وبلغت قيمة استثماراته 35 مليون دولار وبطاقة إنتاجية بلغت 43 ألف طن من ألواح الزجاج، ليضع نهاية للعجز الإثيوبي في إنتاج الزجاج، وهو ما دعا رئيس الوزراء الإثيوبي الراحل ميليس زينادي شخصيًّا لافتتاح تلك المجموعة من المصانع.

أما عن صندوق التنمية الصيني الإفريقي الذي يعد أحد أهم آليات التعاون العملي بين الصين وإفريقيا، والذي أعلن قيامه الرئيس الصيني هوجين تاو في نوفمبر 2006، فيقوم بتدعيم الاستثمار وتمويل بعض المشروعات في صناعة الإسمنت والجلود وإنشاء منطقة صناعية.

والأهم هو اتفاق البلدين فيما يخص منع الازدواج الضريبي وتوقيع اتفاق بهذا الشأن في 20 مايو من عام 2009، وهو ما سيلعب دورًا كبيرًا في زيادة الاستثمارات والتجارة، حيث سيشجع المستثمرين ورجال الأعمال الصينيين على الدخول في مشروعات مختلفة.

يضاف إلى ذلك أن الشركات الصينية تعتبر هي المحتكر الأول لجميع مشروعات الطرق والكباري في إثيوبيا، وكان آخر مظاهر هذا التواجد هو المشروع الضخم الذي قامت به شركة SHANGAHI CONSTRUCTION التي أقامت شبكة من الطرق والكباري تعرف باسم «جويترا»، ربطت من خلالها أطراف العاصمة وضواحيها بقلب المدينة وهو ما ساهم كثيرًا في تغيير البلد، ومن قبل قامت الشركات الصينية بإنشاء الطريق الدائري لأديس أبابا.

أما على المستوى السياسي والدبلوماسي فحدث ولا حرج، زيارات المسؤولين من البلدين لا تنقطع وتعد البعثة الدبلوماسية الصينية في أديس أبابا من أكبر وأقوى مظاهر التمثيل الدبلوماسي الأجنبي في العاصمة ولا يفوقها إلا التمثيل الدبلوماسي الأمريكي.

وتحرص البعثة على مشاركة الإثيوبيين في كل المناسبات العامة وخاصة الدينية منها، حتى إنهم قاموا بتكريم الرياضيين الإثيوبيين الذين فازوا بالميداليات الذهبية والفضية في مسابقة الجري بدورة بكين الأوليمبية.

أتأمل جيدًا تلك الأرقام التي وقعت تحت يدي، والتي تخص استثمارات دولة مثل الصين لا تربطها أي مصالح قومية أو سياسية مع بلد مثل إثيوبيا، ولا يربطها بها أي حدود أو انتماءات جغرافية ولا أي علاقات تاريخية أو مشاعر دينية دفينة، ولا يتعلقان بحبل سري واحد ألا وهو نقطة الماء الذي هو أصل الحياة.

لا أرى سوى حالة جبارة وعبقرية وتمت إدارتها بحنكة شديدة، تقابلها حالة مصرية من الإهمال والتقصير واللامبالاة، بدأت منذ أيام الرئيس المخلوع محمد حسني مبارك الذي ألقى بنا بين أحضان أمريكا وشركائها، مرورًا بعصر مرسي وإخوانه الذي أعلن الحرب على إثيوبيا في اجتماعه المعلن على الهواء مباشرة.

لماذا لم يلتفت رجال الأعمال والمستثمرون المصريون الذين أبهرتهم الأسواق الأمريكية والأوروبية إلى تلك الأراضي السمراء المنتفخة بينابيع المياه التي تضخ فيها الخصوبة والاخضرار؟ لماذا لم يسمعوا النداء ليشهدوا ساعة الطلق ليكونوا بمثابة الأمهات اللاتي يحتضن أطفالهن بعد ولادة متعثرة؟

أرض بكر بها مساحات خضراء في انتظار من يعمرها، 150 مليون رأس حيوانات لحومها وألبانها «أورجانيك» لأنها لا تأكل من شيء سوى المراعي الطبيعية؛ ثروة لا تقدر من البقول والحبوب والزيوت.

مصانع في انتظار من يدير عجلاتها، لماذا لم نضع بصمة لنا؟ وهل تأخرنا في اللحاق بالركب بعد أن تخلفنا عنه؟!

أسئلة ليست في حاجة لإجابة على ورق وإنما هي في حاجة إلى حجز أول طائرة متجهة إلى إثيوبيا.

الليل في أديس أبابا خافت ومظلم وكئيب. لا محالة يصيبك بحالة من حالات الاختناق، بل وتضبط نفسك متلبسًا بالنظر إلى ساعتك تعد وتحصي الثواني قبل الدقائق لكي يمر فتخرج عليك شمس الصباح، وكيف لا يكون كذلك والبلد بكل أقاليمها الأمهرية والبنجراية تقع فريسة لانقطاع الكهرباء باليومين والثلاثة، لا ينقذ الأغنياء -وهم قليلون- سوى مولدات الكهرباء التي يمتلكونها، أما الفقراء وهم أغلبية الأحباش فحياتهم تتحول إلى كتلة من الظلام.

هكذا كانت تمر ساعات الليل ثقيلة، فقط لم يهونها علينا سوى حالة الفضول والترقب والانتظار للذهاب إلى مطار أديس أبابا ليس لنستقل

وأبونا «الآباي» من رحم أمه الملقبة بـ«بحر دار».

الفصل الثاني

«الآباي».. أبونا في الأعالي

تصرخ الرياح ألمًا، وتتنازع السحب صخبًا وتزمجر الجبال غضبًا، فتتمخض السماء مطرًا، لتنجب ابنها البار الذي يبدي سلطانه في يوم حياته الأول، فيكشف عن شلالاته الهادرة الممزوجة بالعنف والاندفاع والسخاء والحكمة.

هنا يقتحم الحواجز بجسارة مدركًا مكان نهايته، وزمان غايته، ليبدأ رحلته الأولى طفلًا مجنونًا، فشابًّا حكيمًا، لينتهي كهلًا مثقلًا بالهموم لا يملك سوى أن يلقى بها في بحر هائج ليلقنه علم الفلسفة وفنون الحكمة.

من «بحر دار» الحبشية بدأنا رحلتنا إلى فاتحنا الموهوب «نهر النيل».

ساعة واحدة في الجو كانت كفيلة بأن تنقلنا من «أديس أبابا» إلى بيت البحر أو دار المياه، وهو في الغالب أصل عربي لتسمية المدينة، كل ما حولك يدعوك دعوة صريحة لأن تتأمل في هدوء وصمت، بدءًا بتلك الوجوه التي تقع عيناك عليها والتي ازدادت سمرة وحلاوة، عن مثيلاتها ساكنة العاصمة بضجيجها وصخبها، مرورًا بشوارع المدينة التي على الرغم من فقرها الشديد إلا أنها تحمل بين جنباتها ثراء تاريخيًّا قديمًا سرعان ما تدخل رائحته صدرك دون أي استئذان. وحتى ألوان البيج التي ارتسمت فوق صفحة بحيرة تانا التي احتضنت المدينة الصغيرة «بحر دار»،

والتي تعتبر ثاني أكبر بحيرة طبيعية في العالم بعد بحيرة فيكتوريا، إذ يمتد طولها لمسافة 135 كيلومترًا وعرضها 65 كيلومترًا.

كان قرص الشمس يغرق في «بحيرة تانا» التي فتحت صفحاتها على مصراعيها، لتأخذه بين أحضانها في مشهد يعجز البشر عن وصفه، فما كان منا إلا أن نقف مشدوهين أمام تلك اللوحة.

تيدي الشاب الإثيوبي الذي يرافقنا منذ أن حطت عجلات الطائرة الصغيرة على أرض مدينة بحر دار، لم يفهم ماذا نقصد بالضبط بعبارة «النيل الأزرق» وتباعًا لم ندرك أنه لا يعرف هذا الاسم إلا بعد أن علمنا أن أهل الحبشة يلقبونه بـ«الآباي». وكما قال «تيدي»: «هو ليس معجزة من عند الرب منحنا إياها فحسب، ولكننا نقدره ونحترمه بل ونعتبره أبًا لنا يهبنا الخير والإخصاب، بل هو أيضًا سر حياتنا، لذلك نطلق عليه «الآباي» أي الوالد».

ملامح وجه تيدي وهو يتحدث باحترام ووقار وشموخ بل وفخر عن «الآباي»، ذكرني بأجدادنا القدماء، الفراعنة العباقرة الذين كان لديهم قسم يقسمونه بين يَدَي «أوزوريس» وقضاة الموت، فمن كان يمثل بين أيديهم عليه أن يبرئ نفسه من الكبائر الأربع ويقول: «إنني لم ألوث النيل ولم أحبسه عن الجريان في موسمه ولم أسد له قناة».

ما بالك لو كان الفراعنة قد شهدوا ذلك العصر الذي نلوث

فيه بأيدينا صفحات «الآباي» بمقالب القمامة، والحيوانات النافقة ونفايات المراكب العائمة؟ ترى كيف كان سيتعامل معنا أوزوريس وقضاته؟!

ما إن تحركت سيارتنا متجهة إلى قرية «الآباي» لنقف وجهًا لوجه عند أول محطة ينبع منها نيلنا العظيم، إلا وكان علينا أن ننحني عن الطريق الرئيس لندخل في مسار آخر من الطرق غير الممهدة.

نظرة سريعة من شباك السيارة تستطيع معها أن تشم رائحة الفقر الذي ينهش في تلك الأبدان النحيفة شديدة السواد، أجساد عارية وأقدام حافية ووجوه حفرت معالمها كل أنواع الحرمان، الذي لم ينجح في أن يفقدها ابتسامتها التي ترتسم ما إن ترى غريبًا يطرق بوابات شوارعها.

لم يهون علينا مشقة الطريق الحجري تارة والترابي تارة سوى كلمات مرافقنا تيدي؛ الذي راح يتحدث بحب وعشق عن مصر وأهلها وعبقريتها وتقدمها وتكنولوجيتها وأهراماتها ونيلها الذي يشقها من طولها لعرضها، ويبدو أن هذا الحب لم ينحصر عند تيدي فحسب، بل إنه امتد لكل الحبشيين الذين قابلناهم، خاصة عندما قررنا أن نلتقط أنفاسنا في إحدى الاستراحات الفقيرة على طول الطريق الذي يمتد لنحو 80 كيلومترًا.

كان المحيطون ما إن يسمعوا لغتنا العربية التي نتحدث بها

سويًّا إلا ويلتف حولنا الجميع في احتفالية شعارها EGYPT، وعندما نسألهم ماذا يعرفون عن مصر تفاجأ باسم الراحل البابا شنودة يتردد على كل الألسنة، فهم لا ينسون أبدًا علاقة الكنيسة الأرثوذوكسية في مصر بالكنيسة الباباوية في الحبشة، ويتذكر أهل مدينة بحر دار كيف قطعوا أميالًا عبر الطريق البري ليصلوا إلى العاصمة أديس أبابا؛ لأنهم ببساطة لا يملكون ثمن تذكرة الطيران، لكي يكونوا من أوائل الوجوه التي تقف في شوارع العاصمة الإثيوبية في استقبال قداسة البابا الذي زار إثيوبيا في أبريل 2008.

هم ينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى شعوب أوروبا وأمريكا، ننبهر بتقدمهم وتكنولوجيتهم ونتمنى أن نعيش مثلهم لنصل إلى ما وصلوا إليه. ليس صحيحًا ما نسمعه بين الحين والآخر أن أهل الحبشة لا يحبون أهل مصر، بل وينظرون إليهم على أنهم المستفيدون من مياه النيل التي تنبع من أراضيهم وهم لا يستفيدون شيئًا، بل أيضًا يعيشون في ظلام ما إن يحل الليل، وربما تكون إضاءة خافتة أو خانقة، وليس صحيحًا أنهم يتعاملون معنا بمنطق المن والهبة أي إننا نعيش بفضلهم.

مشاعرهم البسيطة وكلماتهم الودودة عن البابا شنودة وعبد الناصر والبابا كيرلس وبعض نجوم الكرة مثل عمرو زكي وأبو تريكه وميدو والأهرامات، لخصت حالة العشق التي تربطهم بنا، ووصفهم الرقيق للـ«آباي» بأنه والد لمصر والحبشة، أسقط

دمعة من العين.

دخان الحريق

من السهل أن تعرف أنك وصلت إلى قرية «آباي» عندما تقف سيارتك أمام حائط سد، عفوًا ليس سدًّا من السدود التي يقال إن إثيوبيا شيدتها للاستفادة من مياه النيل، والتي بدورها تؤثر على كمية المياه التي تحصل عليها مصر، وإنما هو حائط محطة توليد الكهرباء الضخمة الذي يجبرك على الوقوف بالسيارة، وإياك أن تفكر في الاقتراب أو التصوير وإلا تكون ارتكبت جريمة يعاقب عليها القانون.

من هذه النقطة بدأنا رحلتنا على الأقدام من أجل الوصول إلى لحظة الميلاد.

8 كيلومترات وسط غابة زاهية من الألوان، الأخضر ملكها والورد البلدي الأحمر أميرها، وأعداد لا تحصى من الأبقار الهاجعة لا هم لها سوى الرعي «الأورجانيك» من تلك المساحات الشاسعة من الأراضي الخضراء.

لم يكن ظننا أننا وصلنا في محله، إذ فوجئنا بأن علينا أن نقوم بتأجير زورق ينقلنا إلى الضفة الأخرى من «الآباي» لكي نصل إلى نقطة المنبع الأولى.

ما إن تصل إلى الضفة الأخرى من النهر إلا ويصل إلى مسامعك صوت هدير آتٍ من بعيد. وكلما أخذتك قدماك اقترب الصوت فتضبط دقات قلبك متلبسة بالازدياد وقشعريرة تنتاب جسدك، مع نسمة هواء تحمل معها رائحة غريبة لم تعتَد عليها من قبل، ربما تكون رائحة التاريخ.

جاءنا صوت مرافقنا بعد أن مشينا ما يقرب من 5 كيلومترات؛ ها نحن نقترب من «تيسي ساد» أو SMOKING FIRE، لم نعرف سر تسمية شلالات النيل الأزرق بهذا الاسم إلا عندما وقعت عينانا عليه أخيرًا، لقد أطلقوا عليه «دخان النار» لما تحمله المياه أثناء اندفاعها من سحابة قوية من الرذاذ تشبه إلى حد كبير دخان الحريق.

لم نكن في حاجة إلى أن نسمع صوت مرافقنا محدثًا عن رحلة «الآباي» الذي يسير في مجراه نحو 4200 كيلومتر، وكيف يلتقي ببحيرة تانا والصخور التي يتحداها ليمضي غير آبه بعنفوانها، وكيف يلتقي بالنيل الأبيض في السودان ليكونا نهر النيل الذي يصل إلينا.

فقط لم نكن في حاجة إلى أن نسمع أو نرى شيئًا سوى صوت الهدير الذي ترتجف له الأبدان، ومشهد الاندفاع الذي تتحول فيه المياه بقدرة قادر إلى دخان كثيف يصنع منه قوس قزح ألوانه السبعة.

مشهد بالتأكيد يعجز المرء عن وصفه، ولكنه حتمًا يأخذك من قدميك فتصبح مسيرًا متجهًا نحو الأسفل غير عابئ بوعورة الصخور المغطاة بالطين والتي لا مفر من الانزلاق عليها.

حاولنا أن نتغلب على صوت ذاك الهدير الذي ينادينا مثل النداهة تمامًا ليأمرنا بالقدوم عند عتبته ولكننا أبدًا لم نفلح.

رحم الحياة

وجهًا لوجه أمام شلالات «الآباي»، هكذا حدثت نفسي عندما اعتليت صخرة في مواجهتها تمامًا، بينما راح زميلي حسام دياب يلتقط كادراته من كل زواياها.

ها هي لحظة الميلاد التي قطعنا من أجلها مئات الأميال، وها هو الشريان الذي يسري في عروقنا فيمنحنا كل صنوف وألوان وفنون العطاء.

ها هو رحم الحياة، لحظة الطلق التي جعلت من مصرنا هبة النيل، وها هي الاحتفالات الفرعونية تقام على قدم وساق منذ خمسة آلاف عام احتفالًا بمغادرة أمواج النيل الأزرق جبال الحبشة، فكان الكهنة يخبرون شعبنا بأن تلك المياه الهادرة ما هي إلا دموع إيزيس على فراق الحبيب أوزوريس الذي قطع

أوصاله إله الشر «ست».

ها هي المعجزة الربانية تمثل أمام عينيك في مشهد لا تملك أمامه سوى أن تقول: سبحان الله فيما خلق وأبدع.

لا أعرف لماذا وجدتني أفاجئ مرافقي الذي امتثل للصمت بجانبي متسائلة: هل جاء ليبرمان وزير خارجية إسرائيل أثناء زيارته لأراضيكم إلى هذه المنطقة؟

أسعدني كثيرًا عندما أجابني بالنفي، ولكن يبدو أن الرياح تأتي دائمًا بما لا تشتهي الأنفس، فلم تدم سعادتي عندما سألته عن التواجد الإسرائيلي في منطقة بحر دار، فأجابني واثقًا: ليس في بحر دار وحدها بل في كل أنحاء إثيوبيا.

قالها وصمت، وكأنه ألقى بقنبلة في وجهي ليعاود الصمت والتأمل لـ«الآباي» الذي بات يشاهده كأنها زيارته الأولى. فلم أملك إلا أن أطلب منه مباشرة أن يزودني بالتفاصيل، والحقيقة أن تيدي لم يبد دهشته في اهتمامي بل على العكس تمامًا بدأ حديثه هادئًا محملًا بالمعلومات قائلًا: «الإسرائيليون يحتكرون زراعة الورد في إثيوبيا فهم مبدعون فيها، ويمتلكون العديد من المزارع الخاصة ويقومون بتعليمنا فن زراعة الورد وتنسيقه.

وتحديدًا توجد لدينا مزارع كثيرة يمتلكونها وهي تبتعد عن بحر دار نحو 180 كيلومترًا، وهي كانت مقرًّا ليهود الفلاشا الذين يملكون مصنعًا من أهم مصانع « الطحينة»، واستطاعوا أن

ينافسوا في السوق الإثيوبي بل ويقومون أيضًا بالتصدير، خاصة أننا من أهم دول العالم التي تزرع السمسم».

وما زال تيدي يلقي بقنابله في وجهي مبتسمًا: «ما أنا متأكد منه أنهم يمتلكون أيضًا أهم مصنع للأسمنت في مدينة «مكالي» بإقليم «تيجراي»، ومصنعًا لتكرير البترول ودخلوا أيضًا مع الصينيين في مشروعات البنية التحتية الخاصة بالطرق والكباري».

ساد الصمت فترة ليست بقصيرة، وبقلب مرتعد يخشى ما ستسمعه أذناي من قبل تيدي، قلت له: «أظن أن إسرائيل قد ساهمت في بناء بعض من السدود الإثيوبية؟» أجاب: «ليس عندي فكرة، ولكن ما أنا متأكد منه أن الصينيين هم الذين تبنوا مشروعات السدود التي تقوم بها إثيوبيا، من أجل توليد الطاقة لأننا نعاني من مشكلة في كل أقاليم إثيوبيا وهي نقص الكهرباء».

لم يقطع حالة الصمت التي انتابتني بعد حديث «تيدي» عن الإسرائيليين، سوى صوت زميلي المصور الفنان حسام دياب صارخًا متوجعًا محاولًا أن ينهض من على تلك الصخرة الكبيرة، التي انزلق عليها أثناء حالة التصوير التي انتابته لمشهد «دخان الحريق».

لم نملك سوى أن نودع لحظة الميلاد بكل ما تحمله من اندفاع ونماء وخير، لنبدأ في رحلة العودة الشاقة إلى مدينة «بحر دار»، وتحديدًا إلى أول مستشفى قابلناه لعمل الأشعة اللازمة لقدم

زميلي المصور الذي أمره الأطباء الإثيوبيون بالراحة التامة لمدة يومين على الأقل.

ولأنها مهنة المتاعب، ولأن الوقت لا يكفي فقد تحمل حسام آلامًا لا توصف، من أجل إتمام رحلتنا لأنحاء دول حوض النيل كافة.

ودعنا «بحر دار» وفارقنا «الآباي»، متمنين له رحلة سالمة غانمة، ليلتقي برفيق دربه النيل الأبيض في السودان، ليكملا رحلة العمر من أجل الوصول إلى مصر لعله يستريح.

الفصل الثالث

التيه خلف السدود

أين الحقيقة فيما يخص موضوع السدود التي تنوي إثيوبيا إقامتها على شلالات النيل الأزرق؟ والذي قد يؤثر بدوره سلبًا على حصة مصر من مياه النيل؟

وهل هناك من الأساس سدود سبقت بناء سد الألفية أو كما يلقبونه «سد النهضة» عند المرتفعات الإثيوبية؟ وما علاقة إسرائيل بهذا الملف؟ وهل صحيح أنها ستقوم بتمويل بناء مجموعة من السدود لتنقذ إثيوبيا لوجه الله، من أزمة الكهرباء التي تعاني منها؟!

لا يمكن لي أن أتعرض لمثل هذا الموضوع الاستراتيجي، أو أن أفتح ذلك الملف الضخم الشائك دون أن أقرأ بل وأفهم وأحفظ ما قاله د. رشدي سعيد عن ظهر قلب، ذلك الرجل الفيلسوف الذي يعد واحدًا من أهم الشخصيات التي قامت بوضع أسس علم الجيولوجيا بمصر، والذي ذكر في كتابه الذي يحمل عنوان «نهر النيل نشأته واستخدام مياهه في الماضي والحاضر».

كان الكتاب بمثابة الدليل والمرافق والمرشد لنا في رحلاتنا إلى دول منابع النيل، ما يدلل على أن موضوع السدود على النيل الأزرق ليس بجديد ولا مستحدث، خاصة عندما كشف د. رشدي سعيد عن دراسة تمت بواسطة مكتب استصلاح الأراضي بالحكومة الأمريكية فيما بين عامي 1959 و1964، عندما دعت

الحكومة الإثيوبية هذا المكتب لدراسة حوض النيل الأزرق لبحث إمكانية تنمية حوضه، بعد أن اتخذت مصر قرارها ببناء السد العالي، والكلام على لسان د. رشدي، أن أحدًا لم يكن يعرف كيف يمكن أن يكون هذا العمل وخاصة أن النيل الأزرق يجري في خانق عميق لم يركبه أحد حتى عشرينيات القرن العشرين، وقام المكتب الأمريكي بدراسة هيدرولوجية حوض النيل الأزرق وجيولوجيته وتضاريسه ونوعية مياهه وثروته المعدنية ومياهه الأرضية واستخدامات أراضيه واقتصاديات تنميته، كما قام المكتب بإنشاء 59 محطة لرصد النهر وقياس تصرفاته وبتصوير الحوض من الجو ورفع خرائط له، وأظهرت دراسة المكتب أنه لا توجد أراضٍ في دول حوض النيل يمكن زراعتها، وإنما توجد أراضٍ في الهضاب المحيطة يمكن توصيل المياه بها وزراعتها وعلى الأخص منطقة بحيرة «تانا»، وتصل جملة الأراضي التي ذكرها التقرير أكثر قليلًا من المليون فدان يحتاج ريها إلى نحو 6 مليارات متر مكعب من المياه في السنة، وركز التقرير على إمكانيات استخدام مياه النيل الأزرق لتوليد الكهرباء، لذا اقترح بناء أربعة سدود كبيرة في الجزء الأخير من المجرى والذي يبلغ متوسط انحداره نحو 50 مليار متر مكعب، هي جملة تصرف النيل الأزرق والتي تولد من الكهرباء نحو 25 مليار كيلو وات في الساعة، أي ما يزيد على ثلاثة أضعاف كهرباء السد العالي.

ولما كانت تكلفة المشاريع التي جاءت بالتقرير كبيرة، فقد اقترح المكتب الأمريكي أن تقوم إثيوبيا بالتركيز خلال القرن

العشرين على بناء السدود الصغيرة، أما مشروعات السدود الكبيرة على النيل الأزرق فقد اقترح تأجيلها إلى القرن الحادي والعشرين، وقدرت تكاليف مجموعة مشروعات القرن الحادي والعشرين بنحو ملياري دولار وتكلفة سدود النيل الأزرق بنحو 3.8 مليارات دولار هذا حسب أرقام عام 1964.

ويستكمل د. رشدي سعيد حديثه عن السدود قائلًا: إن بناء هذه الخزانات المتفرقة ليس سيئًا بالضرورة، فلو تم بناؤها بالتنسيق مع دول أدنى الحوض فقد يكون ذلك خيرًا على الجميع، خاصةً أن هذه السدود ستنظم سريان مياه النيل الأزرق على مدار السنة بدلًا من نمطها الحالي الذي يأتي بمعظمها في موسم واحد، ولو أن إثيوبيا بنت جميع السدود المقترحة على النيل الأزرق وحجزت لنفسها 6 مليارات متر مكعب، فإنها ستطلق الباقي بمعدل 3.6 مليارات متر مكعب في الشهر بعد حجز نحو 3% من الماء سيضيع في البخر في خزاناتها، كما أن إطلاق الماء بانتظام من إثيوبيا سينهي ظاهرة الفيضان والتذبذبات التي تأتي معه في خزان السد العالي، وسيقلل من ارتفاع الماء في بحيرة ناصر إلى الحد الذي سيقلل منها بما يوازي ما ستأخذه إثيوبيا.

وأكد د. رشدي في نهاية حديثه أن كل هذه الحسابات نظرية، ولا يمكن لها أن تتحقق لصالح الجميع دون أن يتم التنسيق بين دول حوض النيل كافة خاصة مصر والسودان وإثيوبيا.

حديث د. رشدي سعيد ربما أضاء لنا الكثير من النقاط حول

خلفية موضوع السدود والخزانات التاريخية، وربما أيضًا أظهر لنا بعضًا من الجوانب الإيجابية لإنشاء سدود يستفيد منها الجميع، ولكنه اشترط الاتفاق والتنسيق الذي يترجم بلغة هذا العصر إلى المصالح الاقتصادية والتعاون في كل المجالات ما بين دول الحوض.

نعترف بأن رحلة البحث عن السدود التي أقامتها أو تلك التي تنوي إثيوبيا إقامتها عند نيلها الأزرق مهمة اتسمت بالصعوبة، إذ قد يتخيل البعض أنها أمرًا يسيرًا ومكشوفًا بل أيضًا معروفًا. وما إن تطأ قدماك أرض العاصمة الإثيوبية حتى تجد السدود في انتظارك لتقف أمامها وجهًا لوجه، بل وأيضًا تلتقط عدساتك كادرات متنوعة لها.

والحق أن هذا الموضوع كان الشغل الشاغل لنا، بل إننا طاردنا الجميع في إثيوبيا من مسؤولين ووزراء بل ومواطنين عاديين بالأسئلة المباشرة تارة وغير المباشرة عن موضوع السدود.

اختلفت الآراء وتباينت الأقاويل، فهناك من يقول بأن هناك بالفعل سدودًا قامت بتمويلها الصين وإيطاليا وإسرائيل، وآخرون يؤكدون بأن لا وجود لسدود وخزانات ولا تواجد لأيدٍ تمويلية إسرائيلية!

حيرنا الأمر كثيرًا إلى أن وصلنا إلى ضالتنا المنشودة عند هذا الرجل الإثيوبي، الذي جمعتنا به الصدفة وحدها ونظرًا لحساسية

المنصب الذي يتقلده ودقة المعلومات التي مدنا بها فقد رفض ذكر اسمه، واحترامًا وتقديرًا منا لهذا الرجل الذي عشق مصر وترابها ونيلها العظيم والذي زارها ليتعبد في محراب حبها العديد من المرات قررنا أن نلبي طلبه مع الاحتفاظ باسمه لأنفسنا.

بدأ مصدرنا حديثه قائلًا بأن هيئة الكهرباء الإثيوبية قامت بتوقيع اتفاقيات مع ثلاث شركات صينية لتطوير مشروعات الطاقة الكهربائية وتوليد الطاقة من الرياح، وكان أولها تلك الاتفاقية التي تم توقيعها مع شركة «CHINA GEZHOUBA GROUP COMPANY» وذلك لتوليد الطاقة في منطقة «جبنالي داو» جنوب إثيوبيا ووصلت تكلفة هذا المشروع إلى 408 ملايين دولار بطاقة 254 ميجاوات.

أما الاتفاق الثاني فهو مع شركة «SINHYDROCORPRATION» لإنشاء مشروع في منطقة «شيمو جايدا» بأقليم أمهرا ويشمل بناء 5 سدود على خمسة أنهار بقيمة 55 مليون دولار.

أما الاتفاق الثالث فهو مبدئيًّا مع شركة «HYDROCHINA» بهدف إنشاء مشروعات لتوليد الطاقة من الرياح في منطقة «أداما وميسو بوهارينا» وتبلغ طاقة هذا المشروع 51 ميجاوات لكل منها، علمًا بأن هذه الشركة هي نفسها التي تتولى حاليًا إنشاء سد «يتكيزي» و«وبليس» و«إمبرتي ينشي» و«جيبي» 2 و3.

ولقد وضعت الحكومة الإثيوبية خطة رئيسة لمدة 25 عامًا

لتطوير قطاع الكهرباء بقيمة 12 مليار دولار 70% منها لتوليد الطاقة.

أما سد «جيلجيل جيبي 1» الذي يقع على أحد الروافد الصغيرة لنهر «جيبي» الرئيس على مسافة 260 كيلومترًا جنوب شرق أديس أبابا، والذي بدأ العمل فيه منذ عام 1985 وبشكل جدي من عام 1997 وانتهى في عام 2003، وبدأ الإنتاج في فبراير من عام 2004 بطاقة 183 ميجاوات، ويبلغ طوله 40 مترًا مع وجود ثلاثة توربينات، وقد تكلف بناؤه 280 مليون يورو قدمها البنك الدولي وبنك الاستثمار الأوروبي وهيئة التنمية النمساوية والحكومة الإثيوبية وتولى عملية الإنشاء «كونسريتو» مكون من 12 شركة من إيطاليا وإسبانيا وألمانيا والبوسنة وفرنسا والنمسا وإثيوبيا.

ولدينا أيضًا سد «جيلجيل جيبي 2» وهو بتمويل إيطالي، وهو عبارة عن شق نفق طوله 26 كيلومترًا، وإنتاج الكهرباء عن طريق استغلال المسقط الطولي الذي كونه «سد جيلجيل 1» على نهر «جيبي» ونهر «أورمو» من الناحية الأخرى، وطبقًا للرسم الهندسي للمشروع فإنه لا يحتاج إلى إقامة سد، حيث إنه يستغل المياه المنصرفة من «جيبي 1» والتي ستدفع في النفق الجاري إنشاؤه تحت جبل «فوفا FOFA»، ومن المقرر أن ينتج 420 ميجاوات وتكلفة هذا المشروع بلغت نحو 370 مليون يورو.

أما «جيلجيل 3» فهو الأضخم من بين كل السدود في إثيوبيا

نظرًا لحجم تكلفته، ويقع هذا السد على مسافة 400 كيلومتر غرب أديس أبابا في حوض نهري «جيبي» و«أومو»، وستكون له فوائد عديدة لإثيوبيا والدول المجاورة، فمثلًا تبلغ الطاقة المتوقعة منه 1870 ميجاوات وعند ضمه إلى شبكة البلاد سيغير وجه الحياة تمامًا، سواء على مستوى الاستهلاك المنزلي أو الصناعي وقد أعلنت الحكومة الكينية عن دعمها لهذا المشروع حيث من المتوقع أن تحصل على بعض الطاقة منه.

حديث المسؤول الإثيوبي لم يتطرق لوجود أي يد لإسرائيل في بناء سدود

إثيوبيا، ولكني كنت ملحة في السؤال الذي تحول إلى مطاردة مباشرة فما كان منه إلا أن أفحمني عندما قال: «لقد قرأت كتابًا لـ«مايكل كيلو» وهو أحد المحللين السياسيين الأمريكيين تحت عنوان «حروب مصادرة الثروة»، تكلم فيه الرجل عن العلاقات الإسرائيلية الإثيوبية وعن لقاءات عقدت في تل أبيب بين المسؤولين من البلدين، والتي تعلقت بإقامة أربعة سدود على النيل لحجز المياه وتوليد الكهرباء وضبط حركة المياه باتجاه السودان ومصر، بل وأيضًا كشف عن الهدف الإسرائيلي وراء دعم مشروعات إثيوبيا المائية؛ ألا وهو الهمس في أذن الإثيوبيين لنقض المعاهدة الدولية التي تنظم توزيع مياه النيل، بل وأقنعنا بأن لا تنمية في بلادنا إلا من خلال إقامة السدود وتعديل معاهدة توزيع مياه النيل.

والحقيقة أنني لا أستبعد هذا التحليل أبدًا خاصةً أنه بني على نشر نصوص الاجتماعات والاتفاقات التي عقدت في تل أبيب، ولأنني أعرف مدى حساسية الوضع بين مصر وإسرائيل أعتقد أن هذا الكلام ليس عاريًا من الصحة، خاصة أن هناك بالفعل بعض المشاريع التي تناقش من قبل إسرائيل بغية بناء سد عند مدينة «مكالي» بإقليم «التيجراي» والذي عاد الحديث عن تمويله وبنائه من قبل إسرائيل، بعد أن رفضت إثيوبيا منذ سنوات».

سألني الرجل الإثيوبي باستهجان: «لماذا أشعر بأنك تلومين على إثيوبيا بقبول دول استثمارية أخرى عرضت علينا المساعدة ومدت لنا يد العون؟».

كدت أن أرد عليه فأشار لي بألا أقاطعه: «إسرائيل دولة بالنسبة لنا مثل الصين وإيطاليا والنمسا، كلها دول تريد الاستثمار بشكل سيعود علينا بالعديد من الفوائد في المجالات كافة، خاصةً وقد عشنا عصورًا مظلمة تخلفنا فيها كثيرًا عن الركب، ومن الطبيعي أن نفتح بابنا لمن يطرقه، ولكن أيضًا كل ما أعرفه وأؤكد عليه هو أن أهل الحبشة يفضلون مصر عن أي دولة، ويقدرون دورها الذي لعبته معنا وأيضًا يحترمون ويقدسون تاريخ الدين المسيحي المتمثل في الكنيسة الأرثوذكسية التي كان يترأسها البابا شنودة، ومن بعده البابا تواضروس، لذلك فعلى رجال الأعمال والمستثمرين المصريين أن يفوتوا الفرصة على كل من يهمس له نفسه بتقليص الدور المصري أو تشويهه على أرض

إثيوبيا، ويجب أن نعترف أن مصر تأخرت علينا كثيرًا ولكن الوقت لم يفت بعد».

سكت الكلام ولم يعد منه فائدة، أصابنا الرجل في مقتل، تركناه ولكن ظلت عبارته بأن هناك سدًّا يقام في مدينة «مكالي» التابعة لإقليم «تيجراي» ترن في أذننا، فلم نملك سوى أن نجد أنفسنا في سيارة 4*4 لنخترق الطرق شديدة الوعورة لعشر ساعات متواصلة، لكي نصل إلى مدينة «مكالي» وتحديدًا إلى منطقة «جيفا» التي تبعد نحو 25 كيلومترًا عن المدينة لكي نرى بأعيننا بدايات إقامة سد بتمويل إسرائيلي هناك، والذي تلخص في تواجد بعض الحفارات والكراكات وثمة أشخاص يحملون أقلامًا وأوراقًا ومجسات للقياس والرصد لحين نقطة الانطلاق. حاولنا أن نتكلم معهم بعد أن سرق زميلي المصور كادراته بسرعة، ولكنهم رفضوا متعللين بأنهم لم يحصلوا على تصاريح خاصة بالأحاديث الصحفية.

عندما سألنا مرافقنا «رافي» الذي اصطحبنا إلى «مكالي» عن هذا المشروع الذي يتم التخطيط للبدء فيه، أجابنا بأنه سد يتم العمل فيه من أجل توليد الطاقة، وعندما سألنا عن تمويله قال «إسرائيلي» و«أوري الماجور» صديقي الإسرائيلي صاحب شركة «نيرفاكينكو» إحدى أهم شركات المقاولات في إثيوبيا، أخبرني أنه سيدخل شريكًا مع أحد أهم المستثمرين في «تل أبيب» والذي كان يمتلك شركة تدعى «TIKA» في قلب مدينة «مكالي»، ولكنه

أغلقها نظرًا لتوقف مشروع بناء السد منذ سنوات، ولكنه سيعاود فتحها مرة أخرى بعد اتفاق الحكومة الإثيوبية مع نظيرتها الإسرائيلية على بدء العمل.

لم ننس قبل أن نغادر مدينة «مكالي» متجهين للعاصمة الإثيوبية «أديس أبابا» أن نمر مرور الكرام على شركة «TIKA»، التي ستعاود نشاطها عما قريب، خاصة أن التجهيزات كانت تتم على قدم وساق.

الفصل الرابع

الطيب والشرير

رحلة واحدة لبلاد الحبشة لا يمكن -كما يقولون- أن تشفي الغليل، لذا تكررت الزيارة ولكنها على فترات متفاوتة، كان العامل المشترك في كل رحلاتنا هو ترأس ميليس زيناوي لرئاسة وزراء إثيوبيا. زيناوي معشوق الإثيوبيين على الأرض، الدماغ، كما يلقبونه، الذي خطط ودبر والقلب الذي احتضن بلاد الحبشة، المخلص الأكبر الذي وعد بطاقة من نور تنقذهم من ظلام دامس وقعوا فريسة له زمنًا طويلًا.

هم لا يثقون كثيرًا في الآخر، خاصة عندما يصل إلى مسامعهم لهجة عدائية متعالية صادرة منه، لكنهم ينصتون ويقرؤون جيدًا ملامح الوجوه، بل ربما يفهمون لغة العيون التي غالبًا ما تعبر عن النوايا.

في ظل أجواء متوترة عدائية شابت العلاقات المصرية الإثيوبية، كان حرصنا على مقابلة المسؤولين الإثيوبيين وتحديدًا وزير الري والمياه أشبه بتحدٍّ دخلناه مع أنفسنا، إذ لا عودة إلى مطار القاهرة دون الحديث معهم لسماع وجهة نظرهم وإيضاح العديد من الأمور، لوضع النقاط على الحروف.

المهمة صعبة وثقيلة وليس سهلًا على الإطلاق أن نقتنص موعدًا من الرجل الذي يشغل هذا المنصب الذي يعد أمنًا قوميًّا بالنسبة للحبشة بأكملها.

لم نعرف للمستحيل طريقًا، قررنا وتحدينا وعانينا ونجحنا في زيارتينا أن نلتقي بالرجل الثاني بعد زيناوي رئيس الوزراء الإثيوبي الحاكم الفعلي للبلاد، أصفاو دينجامو وزير الموارد المائية والري لإثيوبيا في عام 2009، وآليما يوتيجو في الرحلة الثانية التي تزامنت مع حكومة الإخوان التي كان يترأسها هشام قنديل.

والفارق بين الرجلين يلخصه وصفهما الأول بالطيب والثاني بالشرير، وهو ما تتأكد منه بسهولة إذا ما تابعت تفاصيل الحوارين وطريقة الإجابة عن أسئلتي الموجهة لهما، والتي تكاد تتشابه في أحيان كثيرة خاصة أنها تتعلق بالمشاكل والاتفاقيات بين مصر وإثيوبيا.

وإذا كان أصفاو دينجامو هو الدماغ في رحلتنا الأولى، فإن آليما يوتيجو قد أهلته شراسته إلى أن يتقلد لقب العمود الفقري للسياسة المائية الخارجية والداخلية لإثيوبيا، والاثنان هما بلا مبالغة اليد اليمنى لرئيس الوزراء الإثيوبي مليس زيناوي، ويبدو أيضًا أن يوتيجو كان الرجل الذي يتناسب ويتماشى مع مرحلة الإخوان، وكما يقولون «الطيور على أشكالها تقع» فقد كان جمود وتحدي آليما هو خير مقابل لغباء هشام قنديل، وبالمناسبة هو ذاته نفس الرجل الذي ما إن طلبت مصر أن تعرف تفاصيل مشروع سد الألفية، الذي تغير اسمه إلى سد النهضة رفض قائلًا: «لن نعطي تفاصيل مشروعنا إلى أي دولة ترفض التوقيع على

الاتفاقية الإطارية». وقالها صراحة. أو «ببجاحة» لن نتعامل مع مصر إلا من خلال الاتفاقية الإطارية.

هكذا تلخصت أهدافنا التي أعطينا لها الأولوية، وهكذا كان منصب وزير المياه والطاقة الإثيوبي نصب أعيننا في كل زيارتنا إلى بلاد الحبشة، خاصة أن من يتقلد هذا المنصب يصبح شاء أم أبى بمثابة المسؤول الأول والمباشر عن ملف مياه نهر النيل، الذي نحصل على 85% من مياهه من الأراضي الحبشية فقط.

أتذكر جيدًا ما قلته لأصفاو دينجامو وزير المياه والموارد المائية، ما إن جلست بثبات أمامه في مكتبه بالعاصمة الإثيوبية، طلبت منه «أن يسامحنا على صراحتنا التي لا تهدف في النهاية إلا لإظهار الحقائق أيًّا كانت مؤلمة أو مرضية، بل ووضع الأمور في نصابها الصحيح، لذلك كل ما نطلبه هو الشفافية والوضوح ليكن شعار حديثنا سويًّا الحقيقة لا مزيد».

وأتذكر ايضًا أنه استقبل عباراتي بابتسامة ارتسمت على وجهه، وما زال صوته الهادئ يرن في أذني مرحبًا بالزيارة المصرية الأولى له قائلًا: «إذًا لنبدأ المصارحة».

أصفاو رجل ذكي شديد الحنكة والمراوغة أحيانًا، وهذه انطباعات أولى عنه سرعان ما ترسخت عندما بدأ يتحدث عن تاريخ «نهر النيل» الذي (يعد من أكبر وأهم الأنهار التي خلقها الله سبحانه وتعالى، اسمه الإثيوبي «RIVER GION»، وورد

ذكره في كتابنا المقدس في عدة مواطن، في البداية كان التعداد السكاني الذي يعيش حول حوض نهر النيل محدودًا للغاية وأعتقد أن نفس الحال شهدته مصر، وبعد إعادة تشكيل الأراضي وقيام الطوفان وتغير المناخ تبدلت الأوضاع إلى الأسوأ.

ومصر وإثيوبيا دولتان كبيرتان ومشتركتان في التاريخ والحضارة، وهناك تماس بينهما في النواحي التاريخية بل ويربطهما مصير واحد، ودولة إثيوبيا هامة جدًّا بالنسبة لمصر والعكس صحيح وهذه الروابط تغيرت مع تغير نهر النيل، فعندما حدثت التغيرات الطبيعية التي أثرت على نيلنا العظيم، نتج عن ذلك تفاقم حالة عدم الأمان وعدم الثقة بل وزادت الشكوك ما بين الناس الذين يعيشون حول ضفاف النهر، وعلى سبيل المثال عندما يتغير المناخ الجوي وتقل حصيلة النهر من مياهه، يحدث سوء الظن من قبل المصريين الذين يعتقدون على الفور بأن إثيوبيا تحجز المياه، وعلى الجانب الآخر تثار بعض الظنون لدى إثيوبيا بأن مصر تستخدم موارد النيل بأكملها، والأولى غير قادرة على استخدامها رغم أنها تنبع من أراضيها، ومع زيادة السكان تزداد هذه النوعية من الشكوك بين الطرفين، وهذا هو الجانب التاريخي للمشكلة).

وجدتها فرصة جيدة للحديث عن افتقاد الثقة وعدم الأمان، فسألته عن الحديث منها في هذا الزمن.

ابتسم أصفاو قائلًا: المشكلة في العصور الحديثة أن التحرك

المصري بدأ في مياه النيل دون إثيوبيا، ومثال على ذلك اتفاقية 1959 والتي تم توقيعها بين مصر والسودان فقط، ودعيني أعترف وأقر بأن مصر أهملت إثيوبيا في هذه الاتفاقية، ولو كانت إثيوبيا طرفًا فيها لكان هذا أفضل بكثير. نحن رفضنا وقتها التحكم في النهر من قبل دولتين وهما مصر والسودان، وسجلنا اعتراضنا واحتجاجنا على هذه الاتفاقية، وأفصح بأن السبب الرئيس لاعتراضنا هو الشعور الذي انتابنا بأن هناك إهمالًا لنا، في الماضي كان كل جانب يدافع عن موقفه؛ مصر باتفاقية 1959، وإثيوبيا بالنهر الذي ينبع من أراضيها، ومن هنا بدأ نوع من تصعيد الخلاف بين البلدين، وعقب نهاية الحكم المظلم الذي عاشته إثيوبيا في ظل حكومة «منجستو»، خرجنا ولدينا اتجاه فكري جديد في التعامل مع كل شيء وما حدث في العصر المظلم هو الذي ساهم في وقوع التوتر والخلاف بين الحكومات والشعوب، لذلك بعد تولي رئيس الوزراء «زيناوي» الحكم بدأنا في تطبيع العلاقات مع جيراننا خاصة مصر والسودان، وتم عقد اتفاقيات 1993 خاصة بعد زيارة رئيس الوزراء الإثيوبي للرئيس مبارك في مصر، ورغم أنه تم التوقيع على الاتفاقية إلا أنها لم تدخل في حيز التنفيذ ولم تُفعل، وهذا ما جعل إثيوبيا تشعر بأن مصر لا توليها اهتمامًا كافيًا رغم أنها تستفيد من 85% من مياهنا من هضابنا، وما أريد أن أوضحه هنا أن إثيوبيا لا تمثل أي تهديد لمصر على الإطلاق بل على العكس نحن أشقاء، بل ونتطلع للتعاون سويًّا فيكفي أننا دولتان تربط بيننا مصالح استراتيجية وقومية.

تحدث أصفاو عن بنود اتفاقية 1933 التي اتهم مصر من خلالها بتجاهل إثيوبيا، خاصة أنها كانت تخص الاستخدام المنصف والعادل لمياه النيل وتقر بعدم إحداث ضرر لأي طرف وإنشاء لجنة مشتركة بين الدولتين، وهو ما لم يحدث، رغم أن البرلمان في الدولتين قد صدق على هذه الاتفاقية، هذا جعل إحساسنا بعدم جدية مصر بشأن أمورنا رغم أنها لو نفذت لاختلفت أمور كثيرة تخص توطيد التعاون بين البلدين.

بعدها دخلنا في مبادرة حوض النيل والتي تم من خلالها تفادي وتنحية كل المشاكل التي تراكمت بين جميع دول حوض النيل، أما المشكلة الحالية الآن هو أن الإجراءات تؤجل، ولو أن المناقشات التي تتم فيما يخص مبادرة حوض النيل قد كسرت حاجز السكون وبدأت الأمور تتحرك على أمل الانتهاء، ونحن نرفض لغة الحرب، وبالتفاوض ولغة الحوار نصل إلى حلول، ونحن نعتقد أيضًا أن عصرًا جديدًا من التعاون والأخوة سوف يبدأ بين كل دول حوض النيل، حتى إن طبيعة المشاكل التي نواجهها قد تغيرت.

- لفت نظري ورنت في أذني جملة وزير الري الإثيوبي التي استخدمها بقوله «نحن نرفض لغة الحرب» فقلت له: أشعرتني بأن هناك من يدق طبول الحرب وهذا غير صحيح بالمرة.

بنفس الابتسامة التي استقبلنا بها قال على الفور: لم أقصد

المعنى المباشر للكلمة ولكن كل ما أعنيه أن طبيعة المشاكل بين دول حوض النيل تغيرت، نحن المجموعة التي تستفيد من نهر النيل سواء كانت دول المنبع او المصب، نمثل 10% من مساحة القارة الإفريقية وثلث عدد سكانها أي نحو 300 مليون نسمة، ونتمتع بأقدم تاريخ وحضارة قاما على ضفاف النهر العظيم، لكل هذه الأسباب والحقائق نحن نستطيع فهم سبل التعاون بيننا لنزيد الإيرادات السنوية لنا ونقلل من حدة الفقر الذي تعيش فيه دول حوض النيل، وأعتقد أن الكثيرين لا يعلمون أن 7 من دول حوض النيل مصنفة على أنها أفقر دول العالم، وعندما بدأنا هذا التعاون كنا على يقين بأن ما تتمتع به مصر من تقدم وتكنولوجيا وخبرات بشرية سوف ينتقل إلى دول حوض النيل لتستفيد منه، وأعتقد أن مصر يقع عليها دور محوري ومسؤولية أساسية لمساعدتنا وتنمية الموارد المائية لنا جميعًا، لأنه ببساطة لو حدث أي تغير مناخيٍ لكانت مصر من أول الدول المتضررة ويليها السودان، ولذلك عملًا على الحفاظ على الموارد المائية التي تذهب لمصر والسودان بنفس كمياتها، من الضروري العمل في مناطق أعالي النيل من خلال عمل مشاريع تنموية تفيد الجميع، يجب أن نواجه هذه الحقائق معًا، لذلك يجب على كل المتخصصين حكومة وشعبًا من الجهتين المصرية والإثيوبية أن يفكروا ويعملوا بطريقة واحدة للحفاظ على هذا النهر، ولا يوجد إثيوبي واحد يفكر في إحداث مشاكل لأشقائه في مصر، نحن نتفهم أمور إخواننا في مصر، وشعبنا في إثيوبيا وأقولها لك

صراحة إنه لن يقبل أي إثيوبي أن يرى شقيقه المصري يموت من العطش والعكس صحيح بل سيتقاسما سويًّا ما هو متاح.

- ولكن ألا تتفق معي على أن أي لعب في منبع المياه يمكن أن يقلل نسبة حصول دول المصب وخاصة مصر على حصتها المائية؟!

- أحترم صراحة سؤالك مما يدفعني للإجابة عليه بمنتهى الوضوح؛ بداية أقول إن الحقيقة واضحة لكل شركائنا في مصر، نحن نتفاوض حاليًا حول الإطار القانوني، وهو عبارة عن مبادئ عامة قانونية ووافقت مصر ودول حوض النيل على مبدأ الاستخدام العادل والمنصف للمياه، وهذه مادة من بنود الاتفاق وفي المادة رقم (5) من الإطار كل الدول أجمعت على عدم إحداث أي ضرر من أي نوع ملموس لدول المصب، ووافقت على تسمية هذه المادة بالأمن المائي، والهدف الأساسي من هذا الإطار القانوني هو وضع معايير وأسس ومبادئ وليس تحديد حصص بأرقام معينة؛ لأن هذا سيأتي فيما بعد عقب إنشاء مفوضية حوض النيل والتي ستنحصر مهامها في دراسة جميع العوامل الخاصة بإيراد النيل ومناقشة توزيع الحصص التي تركز عليها مصر حاليًا، والسؤال هو لماذا تلتزم أو ترتبط مصر بالـ55 مليار متر مكعب من حصتها؟ لماذا

لا تكون حصتها 100 مليون؟ نحن نعمل على دراسة متخصصة بنماذج رياضية حديثة لحساب الأمتار والموارد الطبيعية، ومصر دائمًا ما تذكر أن الأمطار على حوض النيل تبلغ 1600 مليار متر مكعب، فلماذا لا تكون أكثر من ذلك ونعمل من خلال المفوضية على كيفية زيادة إيراد النهر، وهذا لن يحدث إلا إذا تعاونا وقمنا بإنشاء سدود على المرتفعات الإثيوبية حيث يقل التبخر ونحجز الطمي في هذه السدود، وبالتالي سيتم تنظيم إيراد النهر ويستفيد منه مصر والسودان من ناحية، ونستفيد نحن من توليد الطاقة واستخدام بعض المياه، ألم يسأل أحد نفسه أين تذهب الـ 1600 مليار متر مكعب من الأمطار التي تسقط سنويًّا على هضبة الحبشة؟! فإذا كان هذا الرقم صحيحًا فدعونا نستفيد من هذه المياه ونعمل معًا في الدراسات والبحوث التي تمكننا من الحساب الدقيق لمصادر الحوض، وإلا إذا قلت الموارد المائية في المستقبل فمن أين ستحصل مصر على حصصها، خاصة إذا استمر الفقر في دول الحوض ومعه تزايد التعداد السكاني، سوف تزيد استخدامات المياه وتقل بالتالي من منابعها، لقد حصلت على تقرير يقول إن الإيراد الذي يصل إلى مصر الآن أقل من المتوسط وهو بالطبع بسبب التغيرات المناخية وليس بسبب حجز إثيوبيا، لذا أخبرك بصراحة أننا نريد التعاون

ومبدأ السيطرة والمراوغة مرفوض، النيل لنا جميعًا وليس لدولة واحدة.

حديث أصفاو دينجامو شيق ومنطقي ومقنع إلى حد كبير، ويفصح الرجل عن تعاطفه وحبه لمصر وخوفه عليها، وأمنياته بزيادة حصص النيل لنا، ولكنه يؤيد وبشدة وصراحة وحماس بناء السدود على النيل الأزرق، التي بدورها شئنا أم أبينا ستقلل من نسب المياه التي تحصل عليها دول المصب، فأين العدل في التوزيع الذي تتحدث عنه يا أصفاو؟

بهدوء شديد وثقة يحسد عليها رد الرجل: معتقداتكم عن بناء السدود خاطئة، ولكن لن نفعل شيئًا إلا بعد أن نناقش هذا المشروع سويًّا، وهنا أقصد الحكومة المصرية والإثيوبية لأن الموضوع ليس بيد إثيوبيا وحدها، نحن نسعى لتنفيذ برنامج متعدد الأغراض بين البلدين منذ 3 سنوات تحت مظلة التعاون في إنشاء سدود تستفيد منها الدول الثلاث: مصر وإثيوبيا والسودان، ويوضع لها نظام بمعرفتها والأمر الذي أود أن أوضحه أن إثيوبيا لا تسعى لسحب المياه في الزراعة إلا في مساحات ضئيلة، ولكن توليد الكهرباء والطاقة وهذا ما فعلناه عندما قمنا بإنشاء السد على نهر تكيزي أو ما تطلقون عليه نهر «عطبره»، وقد خصصناه من أجل توليد الكهرباء، ولكن سنستفيد بجزء صغير منه لزراعة مساحة 24 ألف هكتار في منطقة «هوميرا» على بعد 70 كيلومترًا من السد.

وهذا السد يقوم بتخزين 9 مليارات متر مكعب، وهو مثال جيد للتعاون لأننا أنشأناه بعد موافقة مصر عليه، إذًا هذا يعني أن بناء السدود له فوائد كثيرة ولا يمثل تهديدًا لمصر على الإطلاق.

بادلته الابتسامة والقول: ولكني أعرف أن هناك ما يقرب من أربعة سدود أخرى.

لحقني مسرعًا: كلها تحت الدراسة من خلال المكتب الفني الإقليمي لدول الحوض الشرقي، ولن يفصل أي قرار إلا من خلال مبادرة دول حوض النيل، ولقد وافقت الدول الثلاث (مصر والسودان وإثيوبيا)على عمل تلك الدراسات.

دون أن أشعر وجدتني أقول له بنفس الصراحة التي اتفقنا عليها في بداية حوارنا: ما هي علاقة إسرائيل بملف نهر النيل في إثيوبيا؟

فاجأني الرجل عندما قال مبتسمًا أيضًا: كنت في حاجة ملحة إلى هذا السؤال لكي أوضح أمورًا كثيرة، وخاصة أن هذا السؤال قد طرح في الإعلام المصري بشراسة، خاصة مع زيارة ليبرمان وزير الخارجية الإسرائيلي لبلادنا، ولقد تابعت معظم ما نشر على صفحات الجرائد المصرية والتي كانت عناوينها تتلخص في أن إسرائيل سوف تقوم بتحويل مجرى النيل من إثيوبيا، وأنها تسيطر على منابع النيل، والحق لا أعرف كيف لهذا أن يحدث فنحن ليس لنا أي حدود مع إسرائيل، وهي ليست إحدى دول حوض النيل، ودعيني أقول إن النيل لدينا ليست له أجنحة،

بل على العكس تمامًا مصر لها حدود مع إسرائيل وعلاقات ومعاهدات واتفاقيات سلام، وإذا كان هناك من يملك أن يعطي المياه لإسرائيل فهو أنتم وليس نحن.

ولكن قد أرجع ما قيل عنا لزيارة وزير الخارجية الإسرائيلي لأراضينا، بأن هناك علاقات اقتصادية بيننا وبين إسرائيل وهي نفس العلاقات التي تربط بين مصر وإسرائيل.

واستثماراتهم في إثيوبيا ليست لها أي علاقة بمياه النيل سواء كان في بناء السدود أو غيره، فهم فقط اقتحموا مجال الزراعة وإدخال الميكنة الحديثة، وأقول لكم هذا الكلام على مسؤوليتي كوزير الموارد المائية الإثيوبي، ليس لدي أي تعاقدات مع إسرائيل للاستثمار في قطاع المياه، وزيارة ليبرمان لم تكن في دائرة تخصصي أبدًا ولكنه تكلم ولفيف من رجال الأعمال الإسرائيليين مع كبار رجال الاقتصاد الإثيوبي عن استثمارات مستقبلية في مجال الزراعة والصناعة والتجارة، فقط ما أود أن أقوله في النهاية هو أننا نتطلع لمساعدة رجال الأعمال المصريين ودخولهم الاستثمار في أراضينا، خاصةً أننا لدينا مقومات وإمكانيات كثيرة تحتاج لدفعة قوية من مصر وهي البلد التاريخي الشقيق، لنقف على ركب التقدم الذي تخلفنا عنه كثيرًا ولكن لظروف خارجة عن إرادتنا، ولا تلوموا علينا أن قبلنا يد العون أو المساعدة لشعبنا وأراضينا من أي يد أخرى حتى لو كانت يد الشيطان، لا تلوموا إلا أنفسكم في تلك الحالة.

***

تمضي السنوات، وتنطلق ثورة 25 يناير المجيدة، تتغير حكومات ويترأس وزراء، تنتفض مصر فتخلع وجه مبارك ليبقى نظامه متمددًا معششًا في قلب ضلوع المحروسة، وما بين الدساتير والانقسامات والتناحرات، وما بين التحرير وماسبيرو ومجلس الوزراء ومحمد محمود، ووسط زخم شفيق وحمدين ومرسي وخالد علي، والانتخابات والدم الذي اختارت المؤسسة العسكرية أن تحقنه فيتقلد الإخوان السلطة، ليصبح محمد مرسي رئيسًا لمصر، ويتقلد هشام قنديل رئاسة وزراء مصر، وهو الرجل الذي قام طيلة أعوام بالإعداد والإشراف على تنفيذ مشروعات تنمية الموارد المائية والري بالعديد من الدول الإفريقية مثل إثيوبيا، السودان، تنزانيا، زامبيا، مالاوي، موزمبيق وغيرها؛ لأنه عضو مجلس وزراء شؤون المياه في دول حوض النيل، الذي حصل على درجتي الماجستير والدكتوراة من الولايات المتحدة في الري والصرف، وشارك في أعمال مبادرة حوض النيل، وتقلد ‹‹قنديل›› العديد من المناصب في بنك التنمية الإفريقي كان آخرها منصب كبير خبراء الموارد المائية بالبنك الإفريقي، حيث قام بقيادة فريق العمل لإعداد خطة البنك الإفريقي لتنمية الموارد المائية والري بالقارة الإفريقية.

هشام قنديل بحكم كل ما سبق من مناصب تقلدها، كان يحمل

الصندوق الأسود لتلك العلاقة الشائكة والمظلمة عبر سنوات بين مصر ودول منابع النيل.

في تلك الفترة الإخوانية من حكم مصر، كانت رحلتنا الثانية إلى الأراضي الإثيوبية، سافرنا لنعرف إلى أين وصل ملف النيل، بعد فترة من السكون والهدوء التي بالتأكيد تسبق عواصف، سافرنا لنرى إلى أين وصلت إثيوبيا في بناء سد النهضة وماهي حكايته، والأهم كان مقابلة وزير المياه والطاقة الإثيوبي آليمايوتيجيتو.

عندما طلبت مقابلته عبر المستشار الإعلامي في السفارة المصرية بالعاصمة الإثيوبية أديس أبابا، طلب آليمايوتيجيتو خطوطًا عريضة لأسئلتنا التي نود أن نوجهها إليه، والحقيقة لم أكذب خبرًا فلقد قمت بإرسال العديد من أسئلتي إلى مصطفى أحمدي المستشار الإعلامي وكنت لحظتها لم أغادر القاهرة بعد.

تحدد موعدنا مع الرجل عقب وصولنا بيومين، وفي الموعد الذي حدده لنا وكان السابعة صباحًا (انتبه قارئي العزيز جيدًا لذلك التوقيت) في مكتبه بوزارة المياه والطاقة، كنا أمامه ولكن للأسف فوجئنا والساعة تقترب من الثامنة وهو لم يأتِ، وإذا بمدير مكتبه يدخل علينا وهو الذي وصل لتوه ويسألنا عن سبب وجودنا في هذا الموعد المبكر، فقلنا له إن سيادة الوزير هو الذي حدد لنا هذا الموعد. استأذن الرجل للحظات خرج فيها خارج المكتب ويبدو أنه قد أجرى تليفونًا معه، ليقول لنا بخجل كان واضحًا تمامًا على ملامحه، بأن سيادة الوزير قد قام بتأجيل الموعد للساعة 12

ظهرًا، كتمنا غيظنا وكبتنا استفزازنا وغادرنا المكتب.

وأفصح بأن هذا الموقف قد ساهم في أن يزيد من إصرارنا على مقابلته، وبالفعل عدنا ولكن بعد موعدنا بنصف ساعة.

أدخلنا مدير مكتبه إلى غرفة الاجتماعات، لنجد كاميرات الفيديو وبعضًا من الصحفيين الإثيوبيين متأهبين بأوراقهم وأقلامهم، ولحظات ودخل علينا وزير المياه والطاقة الإثيوبي، ودون أن يسلم علينا أو حتى يقدم اعتذارًا أو حتى كلمة لطيفة تبرر سر تأخره عن ميعاده الذي أعطاه لنا في السابعة، بدأ يجيب عن أسئلتنا قارئًا إجاباته من الورقة التي أمامه.

تعجبت في بداية الأمر، ووجدتني أقاطعه قائلة الأسئلة التي أرسلتها إليك يا سيادة الوزير ما هي إلا خطوط عريضة، ولكن لدي العديد من الأسئلة التي لم أكتبها واحتفظت بها لحين مقابلتك.

فاجأني الرجل عندما قال: أنا ملتزم بالأسئلة التي وصلتني ولن أخرج عن سياقها، ثم إن الوقت المحدد لكم هو ثلث ساعة أتمنى أن تكفي، لذا أرجو ألا تقاطعيني. ولم ينتظر الرجل ردي بل دخل في الموضوع مباشرة قائلًا:

- بالنسبة إلى سؤالك الأول حول مفاوضات الإطار القانوني والمؤسسي لدول حوض نهر النيل، إذا ما كانت قد استمرت لسنوات طويلة في جو من الود والصداقة، وعما حدث بالضبط ليغير مسار هذه المفاوضات ليجعلها محاطة بالتوتر والتوجس

وربما عدم الثقة في أحيان كثيرة بين دول المنبع والمصب؟

- نعم، دول حوض النيل كانت تتفاوض على الاتفاقية الإطارية التعاونية علي مدار 12 عامًا بروح من التعاون والود.

وخلال عملية المفاوضات توصلنا واتفقنا على جميع المواد في الاتفاقية الإطارية التي تم التوقيع عليها.

المادة الوحيدة الفرعية التي لم تتم الموافقة عليها من مصر والسودان، هي المادة 14 ب عن الأمن المائي. وفي اجتماع استثنائي لمجلس وزراء النيل عقد في كينشاسا في مايو 2009 تم تبني الاتفاقية، مع وضع المادة 14 ب كمادة لم يتم الاتفاق عليها ويتم النظر فيها بعد إنشاء مفوضية دول حوض النيل.

لا يوجد كاسب أو خاسر في هذه الاتفاقية.

هذه تنازلات يقدمها جميع الأطراف (دول المنبع السبع من ناحية، ومصر والسودان من ناحية أخرى).

ولكن مع الأسف، قامت مصر بتقديم تحفظات على قرارات المجلس وقامت السودان بأخذ نفس الموقف. وتم إعطاؤهما بعض الوقت بناء على طلبهما لإعادة النظر.

ولكن ظل موقفهما كما هو وبالتالي قررت كوم (يعني بها المفوضية) في إبريل 2010 بشرم الشيخ أن يكون تاريخ فتح باب التوقيع على الاتفاقية 14 من مايو لنفس العام.

وكما تعلمون حتى الآن 6 من أصل 9 دول، قامت بالتوقيع على الاتفاقية ونتمنى أن تقوم الدول الثلاث الباقية بالتوقيع.

وإذا لم تسنح لها الفرصة حتى ذلك، سوف تكون هناك قابلية الانضمام عندما تكون جاهزة لذلك، أنا لا أعتقد بوجود أي مساوئ هنا، فقط توجد مكاسب وتنازلات لجميع الأطراف في تلك العملية.

علاوة علي ذلك ليس من مصلحة أي شخص أن يكون هناك تفاوض لا ينتهي بين دول حوض النيل.

لأن هذا سوف يؤخر إن لم يدمر المصالح والمكاسب المشتركة التي ستنتج عن تنمية نهر النيل.

باختصار، أنا أومن بأن الحل الوسط الذي قدمته دول المصب هو الطريق الوحيد للاستفادة من هذا التعاون.

وأتمنى منكم، كإعلاميين أن تلعبوا دورًا مهمًّا في الحفاظ على روح التعاون بين دول حوض النيل، بدلًا من أن تنشغلوا في حملات الدعاية السلبية.

- هل لنا أن نسمع وجهة نظركم التي لخصها السيد ميليس زيناوي رئيس وزراء إثيوبيا، وأن سد الألفية العظيم الذي قررتم بناءه لن يؤثر على دول المصب ولن يمس حصة مصر في مياه النيل؟!

- بداية الأمر، أحب أن أقول لكم إن فكرة تنمية البنية الأساسية

للطاقة الهيدرولوجية على الجذع الرئيس لنهر الآباي (النيل الأزرق) ليست فكرة جديدة. الهيئة الأمريكية لاستصلاح الأراضي (USBR) قامت بدراسات عام 1964، عرفت فيها أربعة أماكن تصلح لإنتاج كميات هائلة من الطاقة الهيدرولوجية، أحد تلك الأماكن كان بوردر(Border) الموقع المقترح لبناء سد الألفية/ النهضة. الأسباب التي عرضت بمنطقية في ذلك الوقت صالحة للاستخدام الآن كما صلحت للاستخدام في ذلك الوقت، الفارق الوحيد هو عامل الطلب الحالي.

ومصر كانت على علم بتلك الدراسات والمخططات منذ أوائل الستينيات، في الواقع القيام بمشاريع تنموية للطاقة الهيدرولوجية على الجذع الأساسي لنهر الآباي تم تأييده عن طريق مصر نفسها.

قاطعته قائلة: من الذي قال إن مصر كانت على علم بإمكانية إنشاء سد الألفية، وحديثكم عن موافقة مصر عليه يدفعني إلى أن أسألك عن توقيت وتاريخ هذه الموافقة، وصراحة هذا كلام لأول مرة نسمعه؟

أجابني متجهمًا حادًّا: أنصحك بقراءة التاريخ.

فبادرته على الفور: أنا قارئة جيدة للتاريخ، ولم..

قاطعني بشكل حاد قائلًا: أرجو ألا تقاطعيني، دعيني أكمل لو تفضلت. كظمت غيظي واستمعت إليه ليستطرد: في التعريف والحديث حول المبادرات التاريخية التي مر بها نهر النيل، وخاصة مبادرة حوض النيل، واصفًا الإعلام المصري بالتهويل في معالجاته لسد النهضة، واستطرد آليما في الحديث عن الفوائد التي سيجلبها سد النهضة الألفية إلى دولتي المصب، مع الأخذ في الاعتبار أن الأضرار التي ستصيبهما تكاد تكون معدومة، قائلًا: لقد تم إجراء دراسة مستقلة قام بها خبراء معروفون في عام 2008، بتكليف من البنك الدولي عن مفوضية شرق النيل التي كانت مصر جزءًا نشطًا منها، أكدت تلك الدراسة جدوى وجود مركز لتوليد الطاقة الهيدرولوجية على ممر الآباي، سيقوم بتنشيط تجارة الطاقة ويقدم موقفًا الجميع فيه فائز، وبناء على ذلك، سيكون لسد الألفية/ النهضة تلك الفوائد الكبرى على دولتي المصب.

أما عن سؤالك الخاص بالفوائد التي ستعود على دولتي المصب من بناء سد الألفية، فأقول لك من وجهة نظرنا كإثيوبيين إن مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية، يقلل نسبة المياه التي تضيع بسبب البخر من السدود التي تم بناؤها في أماكن صحراوية غير مناسبة في دول المصب. علي سبيل المثال ما يقرب من 19 مليار متر مكعب من المياه تتبخر من السد العالي في مصر، وسدود أخرى في السودان (14.3 مليار من السد العالي فقط) سنويًّا. سد جبل الأولياء في السودان أيضًا يفقد

3.5 مليارات متر مكعب سنويًّا وسعته التخزينية لا تزيد على 1.75 مليار متر مكعب. على النقيض نسبة الخسارة من البخر تم التخطيط لها في مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية وستكون نحو 0.4 مليار متر مكعب.

بالتالي تنمية مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية سيشجع على إحلال بعض السدود التي لا تفيد، مثل سد جبل الأولياء في السودان وسيقلل الحمل عن سد أسوان العالي في مصر وسدود أخرى في السودان، مما سيؤدي للحفاظ على ما يزيد على 6 مليارات متر مكعب من المياه التي كانت تضيع سنويًّا.

البنية التحتية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية في دول المصب سوف تستفيد بمشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية أيضًا. الأكوام من الرواسب التي تصل إلى السدود وموانئ النقل النهري في السودان ومصر، سوف تقل من أول يوم يتم فيه الضبط في مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية. مما سيطيل من عمر سد أسوان العالي والسدود الأخرى.

العديد من الدراسات المتميزة والبارزة أشارت إلى أن الدول الجافة وشبه الجافة مثل مصر والسودان، سوف تتأثر بالتغير العالمي في الجو أكثر من الدول معتدلة الجو. دراسة حديثة صدرت عن المكتب التقني الإقليمي لدول شرق النيل، أيضًا توصلت إلى أن تنمية البنية التحتية للمياه (بناء الخزانات) تعتبر

أحد الأعمدة الخمسة للتخفيف من حدوث أزمات هيدرولوجية شديدة. مثال: تعاقب مواسم الجفاف أو مواسم الفيضانات.

مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية سوف يقوم بكل تأكيد بالتخفيف من أضرار تلك الأزمات.

مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية ينظم جريان المياه باستدامة في مواسم الجفاف مما سيساعد في الملاحة في دول المصب، وتنظيم جريان المياه سوف يساعد على وجود المياه في دول المصب في جميع الفصول، مما سينشط الخطط الزراعية لدول المصب، وبالتالي سيقلل من الخسارة الناتجة عن النقص في المياه أثناء فترات الزراعة والنمو الحرجة.

مشاريع توليد الطاقة الهيدرولوجية القائمة في دول المصب سوف تعطي أداء أفضل نتيجة لضمان وجود المياه دائمًا، خالية من الرواسب. الأمر الذي سيعفي من بناء أي سدود جديدة لأنها ستكون زائدة عن الحد.

مع وجود زيادة في إنتاج الطاقة نتيجة عن الأداء الأفضل للسدود سوف يعزز وينشط تجارة الطاقة في الإقليم الذي يتضمن الدول الثلاث (إثيوبيا، السودان، مصر).

الفوائد التي سبق ذكرها، باختصار، تعزز وتضيف إلى بناء الثقة، وتضع حجر الأساس لمنفعة متبادلة ومتنوعة في مجالات التجارة والاستثمار ما بين الدول الثلاث.

واستكمل آليما القراءة من ورقة إجابته التي حضرها مسبقًا: أما عن سؤالك حول ما يتردد عن أن السدود التي تبنيها إثيوبيا هدفها التحكم الكامل في مياه النيل الأزرق، وبعض ما يتردد في أن إثيوبيا تريد التحكم الكامل في المياه التي تصل إلى مصر؟!

فقد أكد فخامة رئيس الوزراء بوضوح تام في هذه المسألة، وذهب إلى حد عرض ملكية مشتركة للبنية التحتية للمشروع، وليس فقط التعاون الإداري والتقني في عمليات ملء الخزن وإدارة المياه.

وبالتالي، التعليقات التي صدرت عمن يسمون أنفسهم بالخبراء ليس لها أساس علمي. بالتأكيد سد الألفية يجب أن يعمق روح التعاون بين مصر وإثيوبيا حول نهر النيل، لا أن يستخدم لهدمها.

- وما رأيكم إذًا في رأي الكثير من الخبراء في مجال الري، بأن سد الألفية سيجعل من بحيرة ناصر بركة خلال سنوات من بدء تشغيل هذه السدود، مستندين في ذلك إلى أن الطاقة التخزينية ستصل إلى أكثر من 141 مليار متر مكعب مقارنة بـ 120 مليار متر مكعب هي الطاقة الاستيعابية القصوى لبحيرة ناصر؟!

- بالنسبة لنا في إثيوبيا نرى أن الهدف من بناء سد التنمية ليس الحصول علي تحكم وسيطرة كاملة على مياه النيل الأزرق، ولا تحويل بحيرة ناصر (سماها بحيرة السد العالي) إلى بركة صغيرة. الهدف منه هو توليد الطاقة لتنمية الشعب الإثيوبي اجتماعيًّا واقتصاديًّا. مشروع سد الألفية لتوليد الطاقة الهيدرولوجية لن يكون ذا أي تأثير على الحصة الاستهلاكية من المياه في دول المصب. تصميم السد مرن بما يكفي للسماح للخزان بحجز المياه دون أن يؤثر هذا بشدة على دول المصب، ملء الخزان من الممكن أيضًا أن يتم إنجازه عن طريق التشاور مع دول المصب، لضمان التزامن لعدم حدوث أي تضاربات مع عمليات قائمة لتوليد الطاقة في دول المصب، هذا طبعًا إذا أرادت مصر والسودان التعاون.

وبعد هذه الإجابة لملم الرجل أوراقه وبدأ أولى خطوات رحيله فقاطعت ذلك الرحيل قائلة:

- إنك لم تجب بعد علي كل أسئلتنا حتى تلك التي كتبت لك مسبقًا. فأجاب لقد انتهت العشرون دقيقة المخصصة للإجابة، فطلبت منه الإجابة عن سؤال أخير، ودون انتظار رده بادرته: ما تعليقك على ما قاله رئيس الوزراء الإثيوبي ميليس زيناوي خاصة أنك من رجاله المقربين تعليقًا

على الثورة المصرية: «يجب أن يدرك كل إثيوبي أن مصر مستقرة وغير صديقة، أفضل لنا من مصر غير مستقرة وغير صديقة»، فتجهم الرجل وربما تلعثم قليلًا ولم يملك سوى أن يقول وهو يعطينا ظهره في طريقه لمغادرة المكتب؛ نعم يهمنا استقرار مصر، وهذا ما قاله فخامة رئيس الوزراء وانطلق الرجل ليتركنا دون إجابة عن العديد من أسئلتنا، وشعرت بأنه تعمد ذلك.

الفصل الخامس

«سد الألفية»

لا يسألني أحد من أين أتيت بكل التفاصيل الخاصة والدقيقة عن سد الألفية، فقط كل ما يهمنا جميعًا أن نعرف ما هي حكاية هذا المشروع، وأؤكد أن رغبتنا في المعرفة ليست من قبيل الفضول والتدخل فيما لا يعنينا كما تصور بعض المسؤولين الإثيوبيين؛ لأن الأمر ببساطة يخصنا ويهمنا من الدرجة الأولى بل هو بالفعل أمننا القومي والاستراتيجي المائي.

لذا أعرض كل ما وصلت إليه أيدينا من معلومات، لتكون أمام الجميع بما فيهم خبراؤنا المتخصصون في ملف النيل، لعلنا نصل معهم إلى إجابة واحدة عن تساؤل خطير ألا وهو: هل يمكن لهذا السد الذي بدأت إثيوبيا في بنائه بالفعل أن يؤثر على وصول مياه نهر النيل إلينا؟ وهل يمكن أن نصحو من نومنا يومًا لنجد بحيرة ناصر وقد تحولت إلى بركة؟ أم أن المسألة أبسط من ذلك بكثير.

في منطقة صخرية نهاية النيل الأزرق، وتحديدًا في «بني شنقول جوموز»، وعلى بعد نحو 20-40 كيلومترًا من الحدود السودانية، وعلى ارتفاع نحو 500 متر فوق سطح البحر، يسكن مارد إثيوبيا المنتظر، مخلص الحبشيين من الظلام، الذي سينقلهم إلى النور الذي طال انتظاره طويلًا.

«سد الألفية» أو «النهضة» كما يلقبونه، زيارته من خامس

المستحيلات، ومحاولة الإدلاء بتفاصيل عنه تشبه كثيرًا الإفشاء عن أسرار عسكرية، ولكننا عثرنا على كل ما ينتمي إليه بصلة، معلومات شعرنا معها بلحظة الانتصار التي جعلتنا نشعر بأننا نقف أمامه وجهًا وجه.

«سد النهضة» الذي كشف مؤخرًا عنه بنك التنمية الإثيوبي، سنداته التي باعها حتى يومنا هذا بقيمة أكثر من 9.7 مليارات بر «الدولار يساوي 27.6 بر إثيوبي»، أسهمت في اكتمال بناء هذا السد المثير للجدل بنسبة 66%.

ويفصح ذلك عن أن بناءه يتم على قدم وساق بفضل الأموال التي جمعها الشعب الإثيوبي من خلال شراء السندات، بالإضافة إلى جهود الحكومة، حيث وصلت نسبة بناء السد على نهر النيل إلى 66% حتى الآن.

وفوضت الحكومة بنك التنمية في إثيوبيا، بإصدار وطباعة وتوزيع سندات سد النهضة، وهو يقوم حاليًا ببيع السندات عبر أكثر من 100 فرع ومؤسسة مالية صغيرة في جميع أنحاء البلاد.

وقال مدير الإصلاحات الاستراتيجية في البنك، كفلي هيليسوس، إن البنك باع ما قيمته أكثر من 9.7 مليارات بر من السندات منذ بدء بناء أكبر محطة للطاقة الكهرومائية في إفريقيا قبل سبع سنوات.

ويتم تمويل بناء سد النهضة بالكامل من قبل شعب وحكومة

إثيوبيا، ويشارك في بناء السد نحو 9000 إثيوبي و260 مواطنًا أجنبيًّا.

ليكون سد النهضة أكبر محطة للطاقة الكهرومائية في إفريقيا عند اكتماله، وستبلغ قدرة توليده للطاقة 6450 ميجاواط.

مشروع الألفية هو واحد من أهم خطوات الحكومة الإثيوبية في طريق التزامها بالطلب الحالي على الطاقة في البلاد، الشركة الإثيوبية للطاقة الكهربائية هي الشركة المسؤولة عن توليد الطاقة، تحويلها وتوزيعها وبيعها في إثيوبيا كلها. وسيتم هذا ضمن خطط موضوعة وأهدافها أن تكون رائدة في توزيع الكهرباء بشكل يقابل الاحتياجات الاجتماعية والاقتصادية للأمة الإثيوبية.

سد الألفية هو جزء من السيناريو الخاص بالشركة الإثيوبية للطاقة الكهربائية، حتى تستطيع أن تواكب النمو المتزايد في الطلب المحلي والانتشار الصناعي، وأيضًا تصدير فائض الكهرباء للدول المجاورة.

شركة سالليني الإيطالية للإنشاءات ذات نشاط في إثيوبيا منذ العديد من السنوات ومؤخرًا قامت بالانتهاء بنجاح من سد جلجيل جيبي 2 بسعة 420 ميجاوات، وبيليس بسعة 460 ميجاوات اللذين يشكلان سويًّا ما يقرب من 50% من إنتاج البلد الحالي من الكهرباء. جلجيل جيبي 2 هو امتداد لجلجيل جيبي 1 الذي

يعمل منذ عام 2004، وسيضاف إليهم جلجيل جيبي 3 الذي يتم إنشاؤه حاليًا وسيكون بسعة 1870 ميجاوات.

المشروع عنصر أساسي في استغلال إمكانيات نهر الآباي، ما بين بحيرة تانا والحدود السودانية في توليد الكهرباء، ويعتمد العمل في الأساس على أسطوانات من الأسمنت المضغوط للجزء الرئيس من السد ومحطتي طاقة في أسفل السد، ويحوي السد محطتين، واحدة ستكون على الضفة اليمنى بقوة 10 توربينات والثانية على الضفة اليسرى بقوة 5 توربينات، بقوة 5250 ميجاوات للاثنين سويًّا، وعلى الضفة اليسرى من السد الذي سيبلغ ارتفاعه 50 مترًا وطولة 5 كيلومترات، ستقام قناة تصريف فائض المياه مبنية من الأسمنت ليكملوا الشكل العام للمشروع.

وحسب التقارير الفنية يصل متوسط تدفق النهر في موقع بناء السد إلى نحو 1574 مترًا مكعبًا في الثانية، لاستغلال هذا الدفق الهائل –مع الأخذ في الاعتبار تضاريس الوادي- من المتوقع أن يتم بناء سد رئيس بارتفاع 150 مترًا عبر نهر الآباي، هذا الخزان سيكون 1680 كيلومترًا مربعًا، ويكون مستوى ارتفاع المياه في الأوقات العادية 640 مترًا فوق سطح البحر، ومستوى ارتفاع المياه في الأوقات المتدنية 590 مترًا فوق سطح البحر، أما سعة الخزان أثناء الأوقات العادية فستصل إلى 63 مليار متر مكعب، وفي الأوقات المتدنية ستصل سعة الخزان إلى 12 مليار متر مكعب. والخزان سيغمر منطقة تكاد تكون مسكونة، ولا يوجد

قلق من إعادة التسكين.

أما السد الرئيس فسيكون سدًّا ثقيلًا من أسطوانات الأسمنت المضغوط ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الضفة اليمنى، الضفة اليسرى، والقطاع الرئيس في المنتصف.

القطاع الرئيس سيتم استخدامه كقناة لتكثيف تصريف المياه في إطار عمل المولد، وواجهة الخزان ستكون عمودية مع انحدار طفيف من الأعلى إلى الأسفل، وسيبلغ طول واجهة الخزان نحو 1800 متر.

ومع نظرة على التقارير الهندسية نجد أن ارتفاع السد سيكون 145 مترًا، وارتفاعه من على سطح البحر 645 مترًا. مقدار حجم السد 10 ملايين متر مكعب، وسيحوي أربع قنوات بقطر 8 أمتار للقناة سيتم بناؤها في هيكل السد للسماح بتحويل النهر، كما سيتم بناء سد من الركام في قاع النهر لإغلاقه في موسم الجفاف لاستكمال بناء القطاع الرئيس في منتصف السد.

وبالاطلاع أيضًا على تفاصيل التشييد لمولدات الكهرباء وجدنا أنه سيتم إنشاء مولدي طاقة أسفل السد الرئيس على كل ضفة من ضفاف النهر، المولد الموجود على الضفة اليمنى سيكون بقوة عشر وحدات توليد، والأيسر سيكون بقوة 5 وحدات توليد، كما سيتم التحكم في مستوى المياه في الخزان عن طريق ثلاث ممرات لتصريف المياه بحد أقصى 19370 متر مكعب في الثانية

للدفق، على أن يكون الممر الرئيس لتصريف المياه محتويًا على 6 بوابات نصف قطرية تتحكم في التدفق وتقع على الضفة اليسرى للنهر.

أما الممران الآخران لتصريف المياه فليس لهما بوابة ويقع أحدهما في القطاع الرئيس في منتصف السد الرئيس، أما الممر الثاني فسيقع على الضفة اليمنى للسد الثاني الذي سيصل بين قمتين (saddle dam)، وسيكون ذا محور منحنٍ بطول متوقع 4800 متر، على أن يكون السد الواصل بين القمتين بارتفاع السد 60 مترًا، وبطول 4800 متر، أما ارتفاع قمة السد عن سطح البحر فسيصل إلى 645 مترًا، على أن يكون مقدار حجم السد 17 مليون متر مكعب.

ويحوي السد أيضًا محطة تحويل بقوة 400 كيلوفولت مزدوج، من المتوقع أن يتم بناؤها على بعد 1.4 كيلومتر من السد الرئيس. وسوف تحتوي على ثمانية مبانٍ لاستقبال الطاقة المحولة من السد، ومحطات تحويل وتوزيع تلك الطاقة.

تقيم إثيوبيا عددًا من المخيمات «BARRACKS» أولها هو المخيم الدائم والذي يتم استخدامه عن طريق العاملين، يقع على الضفة اليمنى للنهر على بعد نحو 12 كم من السد الرئيس وعلى ارتفاع 1200 متر من على سطح البحر.

ويحتوي على أماكن الإعاشة والتسكين والخدمات على مساحة

10800 متر مكعب، ومبنى إداري على مساحة 400 متر مكعب، ومبنى للزوار على مساحة 360 مترًا مكعبًا، ومخفر على مساحة 300 متر مكعب، كما سيحوي عيادة على مساحة 150 مترًا مكعبًا، ومدرسة على مساحة 400 متر مكعب، وقد تم بالفعل بناء مخيم مؤقت لتسكين العمال والمهندسين في بداية سبتمبر 2010 ووصل عدد العاملين في السد إلى 12000 شخص في وقت ذروة الإنتاج.

قامت إثيوبيا ببناء طريق جديد يفصل بين المرور الطبيعي والمرور الخاص بالمشروع، حيث يستلزم الوصول للمشروع أن تسلك الطريق القائم والذي يمتد على الجانب الأيمن للنهر، من جوبا وحتى حدود السودان، وعلاوة على ذلك تم بناء نحو 25 كم من الطرق بداخل موقع المشروع لتسهيل عمليات التنقل وخصوصًا عند مخيمات الإعاشة، وأيضًا بناء جسر جديد يعبر فوق نهر النيل الأزرق أمام السد الرئيس ليصل الضفتين سويًّا، ونظرًا لعزلة المكان قام الإثيوبيون ببناء مهبط للطائرات الخفيفة لضمان سرعة التواصل مع أديس أبابا.

هذا هو سد النهضة الذي سنحت لي الفرصة بأن أجعلك تمر عليه وربما تشاهده وترقبه دون أن تنتقل من مقعدك، «سد الألفية» الذي جعل مصر تفيق من غفوتها الكبيرة لتصحو على كابوس من طراز فريد يحمل بين طياته حالة من العطش، ربما نبه لها الكثيرون طوال فترة سابقة، بل وربما حرب مائية نقف

على أعتابها في القريب. «سد الألفية» الذي باتت المحادثات الفنية بين وزراء الري في مصر والسودان وإثيوبيا في الآونة الأخيرة في العاصمة الإثيوبية، أديس أبابا، تتم على قدم وساق لتعلن اتفاقها على إنشاء مجموعة دراسة علمية للتشاور بشأن ذلك السد، الذي بلغت تكلفته إلى تلك اللحظة 5 مليارات دولار، بل وأكدوا أيضًا أنهم سيجتمعون كل ستة أشهر لإجراء مشاورات.

«سد النهضة» الذي شهد الكثير من المفاوضات بين مصر وبلاد الحبشة، كانت آخرها زيارة رئيس الوزراء الإثيوبي آبي أحمد مؤخرًا لمصر واجتماعه مع الرئيس السيسي في قصر الاتحادية، تلك الزيارة التي تناولتها الصحف الغربية والإثيوبية والإفريقية والتي أقسم فيها رئيس الوزراء الإثيوبي خلال المؤتمر الصحفي على عدم نية بلاده إلحاق الضرر بمصر، قائلًا: «والله والله لن نلحق الضرر بمصر».

«سد الألفية» تلتف حوله علامات الاستفهام، وتحاصره الأقاويل والشائعات من كل صوب وحدب، فلقد مر بالعديد من المشاكل والعقبات منذ القرار بإنشائه والبدء الفعلي فيه منذ أيام تولي ميليس زيناوي رئاسة الورزاء الإثيوبية، مرورًا بتغير الشخصيات التي تشغل منصب وزير الموارد المائية، وحتى تغير مهندس السد نفسه، الرجل الدينامو، هكذا كان يلقبه الإثيوبيون، والذي أثارت وفاته شجونهم وأسئلتهم حول مقتله أو انتحاره، بل إن عام 2018 وصف من قبلهم بعام «الحزن» لعثورهم على جثة

مديره سمنجاو بقلي وسط أديس أبابا، لتعلن السلطات فيما بعد انتحاره وليس مقتله، ومن هنا يدخل الألفية في منحنى جديد بدأ بتكليف من هيئة الكهرباء والطاقة المهندس «أفريم ولد كيدان» بالإدارة المؤقتة لسد النهضة، لتتوالى الأحداث السيئة بإقرار الحكومة بتأخر أعمال البناء عن الموعد المحدد بسبب إخفاقات من الشركة المنفذة، فيخرج بعدها عمال السد في تظاهرات مطالبة بتحسين الخدمات والأجور لتنضم إلى قائمة الأحداث الحزينة للمشروع، ليقر رئيس الوزراء الإثيوبي، آبي أحمد علي، بتأخر أعمال البناء، التي كان مقررًا أن تنتهي في 2017؛ بسبب إخفاقات شركة «ميتك» الإثيوبية؛ إحدى شركات المقاولات التابعة للجيش، معلنًا أن حكومته اضطرت إلى نقل العقد لمقاول آخر، وتعيين المهندس «كيفلي هورو» مديرًا للمشروع بصفة نهائية، ليعود العمل في بناء السد على قدم وساق وبهدوء شديد ودون أي ضجة إعلامية، ليفاجئ الجميع بإعلان صغير عبر التلفزيون الرسمي الإثيوبي أنه قد تم إنجاز 77 في المئة من مراحل بناء السد.

المتابع لجهود الاحكومة الإثيوبية في إكمال الحلم الإثيوبي يعرف أن هناك اتفاقات جديدة أبرمتها شركة الكهرباء الحكومية مع عدد من الشركات الأجنبية، بغية تفعيل عمل السد ومواصلة البناء، لتبدأ إرهاصات التحرك الإثيوبي في المضي في بناء السد بإعلان مدير المشروع، «كيفلي هورو»، أنه سيتم الانتهاء من عمليات البناء العام عام 2022، مرجعًا تأخر أعمال البناء إلى

التغييرات التي جرت على تصميم السد، ما أدى إلى تأخير الأعمال الكهروميكانيكية، معترفًا بأن الخسائر التي وصلوا إليها من هذا التأخير قد وصلت إلى 800 مليون دولار.

وفي يناير 2019 وقعت شركة الطاقة والكهرباء الإثيوبية اتفاقية مع شركة «جي هيدرو» الفرنسية، لتصنيع محركات وتوربينات تستخدم لتوليد الطاقة وتركيبها في السد، وذكرت وكالة الأنباء الإثيوبية، أنه بناءً على الاتفاقية، سيتم دفع 53.9 مليون يورو (61.4 مليون دولار) لـ«جي هيدرو»، لتصنيع مولدات التوربينات وإصلاحها واختبارها في خمس وحدات لتوليد الطاقة من السد، كما أوردت الوكالة، أن شركة الكهرباء أكملت مفاوضات لتوقيع اتفاقيات مع شركة «سينوهيدرو» الصينية للهندسة والإنشاءات الكهربائية، لبناء قنوات لتنقية المياه والتحكم وتفريغ الفيضانات.

وفي السياق ذاته، أوردت إذاعة فانا الإثيوبية، أنه تم توقيع مذكرة تفاهم مع شركة «سي جي جي سي» الصينية، لمواصلة عملها، وهي الشركة التي أبرمت اتفاقية مع شركة الإنشاءات الإثيوبية (METEC) إحدى شركات المقاولة التابعة للجيش.

كما وقعت شركة الكهرباء الإثيوبية اتفاقية مع مجموعة «جيزهوبا» الصينية، تقوم بموجبه الشركة بتنفيذ أعمال التشغيل الأولية لسد النهضة بكلفة نحو أربعين مليون دولار أمريكي، ووقع على الاتفاقية المسؤول التنفيذي بشركة الكهرباء، «أبرهام

بلاي»، فيما وقع عن مجموعة «جيزهوبا» الصينية ممثلها بأديس أبابا وانغ.

وفي تطور مماثل، منحت شركة الطاقة الكهربائية، لشركة «فويث هايدرو تشانغهاي»، عقدًا للقيام بالأعمال الهيكيلية والكهربائية والميكانيكية اللازمة من أجل إتمام بناء محطة التوليد، وإنشاء قنوات لتفريغ المياه من السد.

وها هو مكتب المجلس الوطني لتنسيق المشاركات الشعبية لبناء سد النهضة، يعلن عن الحاجة إلى بذل كل الجهود اللازمة لوضع اللمسات الأخيرة للسد وفقًا للجدول الزمني، ليؤكد نائب رئيس الوزراء الإثيوبي، والأمين العام لمكتب مجلس التنسيق الوطني لبناء سد النهضة، «دميغي مكونن» أن الحكومة حريصة على العمل بشكل وثيق للانتهاء من بناء السد حسب الجدول الزمني للانتهاء منه، مستوفيًا معايير الجودة والكفاءة، مؤكدًا أنهم قد اتخذوا جميع الخطوات لمعالجة المشاكل التي واجهها السد خلال الفترات الماضية.

الفصل السادس

الأيادي الأخرى

«أين نحن في دولة من أهم الدول إلينا، بل كما قلت إنها تمثل لنا أمننا القومي؟ أين موقع مصر من الإعراب؟ وما هي حقيقة تواجدنا واستثماراتنا على الأرض هناك، والتي قيل إنها وصلت أيام مبارك على لسان د. فايزة أبو النجا وزيرة التعاون الدولي في ذلك الوقت «أن مصر وصلت استثماراتها إلى ملياري دولار في إثيوبيا». وهل يد إسرائيل وحدها هي التي تلعب في الاقتصاد الإثيوبي، أم أن هناك دولًا أخرى تتنافس في هذا الملعب المفتوح على آخره؟

الأرقام وحدها التي وضعها أمامنا محمد سعيد رئيس هيئة الاستثمار الإثيوبي في ذلك الوقت هي التي ستجيب عن تلك الأسئلة.

في البداية تحدث الرجل عن وجود طفرة واضحة في نهضة إثيوبيا ربما تدل على فتح أسواقها ودروبها في كل المجالات للاستثمارات الأجنبية، وكاد فضولنا أن يقتلنا بحثًا وراء الفائز بنصيب الأسد من الكعكة الإثيوبية، والحقيقة أن رئيس هيئة الاستثمار الإثيوبي انشغل بوقت ليس بقصير بين أدراج مكتبه، بل طلب من هاتف مكتبه إكليلو ولد مريم مدير إدارة دعم الاستثمارات ليكون بين أيديه وأيدينا ورق ومستندات بالأرقام عن نشاط واستثمارات أهم 10 دول أجنبية في السوق الإثيوبي، والتي من المقرر لها أن تزيد طوال السنوات العشر المقبلة.

تلك القائمة أعرضها بحذافيرها دون أي حذف أو إضافة لتعرف أين موقعنا بالضبط في دولة تمثل لنا حامي حمى أمننا القومي وأيضًا الاستراتيجي «إثيوبيا».

ولتكن البداية من تصنيف أول 10 دول من حيث رأس المال في إثيوبيا؛ سنجد أن الهند تحتل المركز الأول فلديها 17 مشروعًا في حيز التنفيذ برأس مال 224799.68 دولار. و246 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 1905819.13 دولار، و78 مشروعًا دخل حيز التنفيذ برأس مال 201685.18 دولار.

أما الدولة الثانية فهي السودان ولديها 25 مشروعًا في حيز التنفيذ برأس مال 106851.57 دولار. و617 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 909572.11 دولار، و39 مشروعًا دخل حيز التنفيذ برأس مال 26258.03 دولار.

وتأتي الصين في المركز الثالث برصيد 47 مشروعًا في حيز التنفيذ برأس مال 406555.41 دولار. و677 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 474991.41 دولار، و244 مشروعًا دخل حيز التنفيذ برأس مال 153773.86 دولار.

وتحتل السعودية المرتبة الرابعة ولديها 17 مشروعًا في حيز التنفيذ برأس مال 184845.93 دولار، و186 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 577216.74 دولار، و3 مشروعات دخلت حيز التنفيذ برأس مال 269258.57 دولار.

وتأتي نيجيريا في المرتبة الخامسة برصيد 3 مشاريع في حيز التنفيذ برأس مال 163663.52 دولار، و26 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 810815.56 دولار.

أما المركز السادس فتحتله إسرائيل، فلديها بإثيوبيا 10 مشروعات في حيز التنفيذ برأس مال 7169.03 دولار، و92 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 575879.53 دولار، و25 مشروعًا داخل حيز التنفيذ برأس مال 21596.0000 دولار.

وفي المرتبة السابعة تأتي سلوفاكيا والتي لا يوجد عندها مشروعات في حيز التنفيذ بينما لديها 3 مشروعات تحت الدراسة برأس مال 600824.33 دولار، ومشروع واحد في حيز التنفيذ برأس مال 88.87000 دولار.

ثم تركيا بالمرتبة الثامنة برصيد 12 مشروعًا في حيز التنفيذ برأس مال 120994.12 دولار، و121 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 374740.29 دولار، و26 مشروعًا داخل حيز التنفيذ برأس مال 26994.20 دولار.

وفي المرتبة التاسعة الإمارات ولديها 4 مشروعات في حيز التنفيذ برأس مال 2239.45 دولار، و39 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 467883.64 دولار، و3 مشروعات داخل حيز التنفيذ برأس مال 651.69 دولار.

تليها بالمرتبة العاشرة باكستان ولديها 9 مشاريع في حيز

التنفيذ برأس مال 11457.57 دولار، و56 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 417353.00 دولار، و10 مشروعات داخل حيز التنفيذ برأس مال 6389.25 دولار.

أما عن التصنيف الآخر للتواجد الاقتصادي الأجنبي في إثيوبيا، فقد شرح لنا سعيد أنه ذاك المصنف طبقًا لعدد المشروعات على الأرض الإثيوبية، وفي هذا التصنيف تأتي الصين برصيد 957 مشروعًا في إثيوبيا، ثم السودان برصيد 681 مشروعًا، وفي المرتبة الثالثة الهند برصيد 341 مشروعًا، ثم بريطانيا برصيد 263 مشروعًا، وفي المرتبة الخامسة تأتي السعودية برصيد 234 مشروعًا، وفي المرتبة السادسة تأتي اليمن برصيد 201 مشروع، وتأتي بالمرتبة السابعة تركيا برصيد 159 مشروعًا، والمرتبة الثامنة لكندا برصيد 149 مشروعًا، ثم إيطاليا برصيد 130 مشروعًا، وتحتل «إسرائيل» المركز العاشر برصيد 127 مشروعًا.

صمت الرجل لبرهة ويبدو أنه كان في انتظار سؤالي، والحق أعترف أنني أصبت بالسكتة الكلامية بل وشعرت بحالة من حالات الشرود استطعت أن أفيق منها بصعوبة، عندما لملمت نفسي متسائلة بصوت خافت: لم تذكر من بين التصنيفين السابقين دولة مصر، ويبدو أنها خارج التصنيف سواء على أساس رأس المال أو على أساس عدد المشروعات.

وهنا استطرد الرجل مفسرًا عدم إدراجه لمصرنا المحروسة في

أي من التصنيفين قائلًا: بالطبع يوجد نشاط اقتصادي لمصر في إثيوبيا، ولكنه مقارنة بالدول الأخرى التي ذكرتها مسبقًا هزيل للغاية، وغير مصنف خاصةً أن استثمارات مصر في إثيوبيا محسوبة بالقطاع وليس بجملة رأس المال أو عدد المشروعات، أي إن نوعية المشروع هي التي تشكل الفارق، أعتقد وعلى ما أظن أنه يقصد بالبلدي وكما نقول نحن «بالحتة» واستكمل الرجل تحديده للمشروعات المصرية على الأراضي الإثيوبية قائلًا: في مجال الزراعة لها مشروعان في حيز التنفيذ برأس مال 8471.99 دولار، ومشروعات تمت دراستها برأس مال 1280.46 دولار، و30 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 52894.15 دولار، ليكون المجموع الكلي 37 مشروعًا برأس مال 62646.54 دولار.

أما في مجال الصناعة فمصر لها مشروعات في حيز التنفيذ برأس مال 15492.49 دولار، و6 مشروعات تمت دراستها برأس مال 17275.76 دولار، و38 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 225808.38 دولار، ليكون المجموع الكلي 46 مشروعًا برأس مال 258576.75 دولار.

وفي مجال الصحة لها مشروع واحد تحت الدراسة برأس مال 1184.89 دولار. أما في مجال الفندقة فمصر لها مشروع واحد فقط تحت الدراسة برأس مال 10012.36 دولار.

و في مجال العقارات والأدوات وتأجير المعدات لها مشروع في حيز التنفيذ برأس مال 3554.68 دولار، كما أن لها مشروعين

تمت دراستهما برأس مال 1238.21 دولار، و11 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 17589.81 دولار، ليكون المجموع الكلي 14 مشروعًا برأس مال 17749.18 دولار.

وفى مجال السياحة لها 5 مشروعات تحت الدراسة برأس مال 840.09 دولار.

وفي مجال البناء (يتضمن بناء آبار المياه) مشروع واحد تحت الدراسة برأس مال 177.73 دولار.

ولها أيضًا في مجالات توزيع البترول ومحطات الوقود، وصناعات تصدير اللحوم مشروع واحد في كل مجال من المذكورين في حيز التنفيذ برأس مال 6404.35 دولار.

وعدد من المشروعات تحت الدراسة برأس مال 6042.96 دولار بمجموع كلي 12447.31 دولار.

وأمام هذه التفسيرات المسندة بالأرقام كان علينا أن نسأل سؤالًا أخيرًا لتدهشنا إجابة الرجل حين سألناه: يبدو من العرض السابق لأرقام وإحصائيات رؤوس الأموال المصرية في إثيوبيا أنها لم تصل إلى مليار دولار، في حين أننا سمعنا عن وجود رؤوس أموال مصرية بإثيوبيا تتعدى ملياري دولار؟

نقلت لك من مستنداتنا الرسمية الأرقام الحقيقية والتي تلخص المجموع الكلي للمشروعات المصرية في إثيوبيا بـ6 مشروعات

في حيز التنفيذ برأس مال 30404.39 دولار، 14 مشروعًا تم دراستها برأس مال 19953.80 دولار، و91 مشروعًا تحت الدراسة برأس مال 319076.80 دولار، وبهذا يكون المجموع الكلي لرؤوس الأموال المصرية في إثيوبيا 36.943.6049.65 دولار «نحو 370 مليون دولار» فقط!

ومن عام 2012 الذي أدلى فيه محمد سعيد رئيس هيئة الاستثمار الإثيوبي لنا بتلك الأرقام، إلى عام 2018 –والعهدة على مسؤولية السفير المصري في أديس أبابا، أبو بكر حفني- الذي صرح أن حجم التبادل التجاري حاليًا بين مصر وإثيوبيا لا يتجاوز 170 مليون دولار، بينما يبلغ حجم الاستثمارات المصرية في إثيوبيا نحو 750 مليون دولار .

ولا تندهش ولا تتعجب عندما تسمع ما قالته شركة «جيجاوات جلوبال» الإسرائيلية بأنها ستستثمر بـ 500 مليون دولار أمريكي في إثيوبيا في مجال الطاقة المتجددة وتنمية الموارد البشرية، وإعلان جوزيف أبراموفيتز الرئيس التنفيذي للشركة الإسرائيلية عن الخطة بعد إجراء المناقشة مع رئيس الوزراء الإثيوبي هيل ماريام دسالن حول الشركات الإسرائيلية، فقط تأمل رغبة الصهاينة وإرادتهم وإصرارهم في الاستثمار على أراضي الحبشة في مجال الطاقة الشمسية وطاقة الرياح عبر العمل مع 10 جامعات إثيوبية، وهو المشروع الذي الذي قال عنه أبراموفيتز إنه يستهدف تدريب مئات الآلاف من المهندسين،

بالإضافة إلى تحسين إمدادات الطاقة، وإن شركته أبرمت اتفاقية مع ثلاث جامعات، وهي دبرتابور وجيجيا ومقلى لتدريب المهندسين والاستشارات كما تجري هذا مع الجامعات الأخرى للوصول إلى مراحل مماثلة.

وتأمل جيدًا ما قاله أيضًا رافائيل موراف سفير إسرائيل لدى إثيوبيا، عن أن الشركات الإسرائيلية جاءت إلى إثيوبيا لأنها تؤمن بالفرص الكثيرة المتاحة هنا، وجاءت من أجل الاستثمار طويل الأمد، مؤكدًا «أننا نرغب

في ترجمة العلاقات السياسية الممتازة القائمة بين البلدين إلى منافع اقتصادية لكلا البلدين».

ولا تعليق.

الفصل السابع

بين «قدس إفريقيا» و«الفلاشا»

التاريخ والحضارة يلتقيان عند مياه شلالات الآباي الهادرة التي تحمل الجذور السمراء إلى العالم. هل يمكن أن نكون على تلك الأرض ولا تطأ أقدامنا العديد من الأماكن التي تفوح منها رائحة التاريخ؟

مسافات طويلة قطعناها من أجل الوصول إلى تلك القرية الصغيرة، التي تحمل بين ترابها ذلك الملك الذي قال عليه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم «ملك عادل لا يُظلم عنده أحد» «النجاشي».

وأخرى قطعناها من أجل أن نقف على أعتاب «قدس إفريقيا» أو «لاليبيلا» التي حملت اسم الملك الإثيوبي القديس لاليبيلا الذي أراد أن يؤسس لقدس إفريقية تمثل أورشليم جديدًا يحج إليه المسيحيون من كل أنحاء العالم.

وهل يمكن أن نكون على أرض إثيوبيا ولا نذهب إلى «الفلاشا»؟

وتحديدًا إلى القرية التي تحمل اسمهم «الفلاشا»، تلك التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن بحيرة تانا أو تحديدًا مدينة «بحر دار»، ترى هل ما زال لديهم وجود أم أننا سنفاجأ بأطلالهم في استقبالنا، خاصة بعد أن فتحت لهم إسرائيل أبوابها على مصراعيها؟

رحلات تبدو قصيرة أو خاطفة ولكني أتمنى أن تكون عميقة في مضمونها، ولعلي أنجح في أن أجعلك ترى وتسمع وترصد وتقطع معنا تلك المسافات الطويلة بين دروب البلد السمراء دون أن تنتقل من مقعدك أو سريرك، ولتبق حياتنا كلها محاولات، وإن كانت الحياة نفسها ما هي إلا محاولة.

قرية النجاشي

طويل وشاق ومكلل بالألغام الترابية التي افترشت الطرق غير الممهدة؛ إنه الطريق إلى مدينة مكالي عاصمة إقليم تجراي، والذي يبعد أميالًا لا حصر لها عن مدينة بحر دار، اخترنا الأصعب ولكنه الأفضل، فالطيران دائمًا ما يخطفك، يأخذك بعيدًا لتحلق في السماء، فتشاهد البلدان من الأعالي، والحقيقة أنني لطالما كرهت تلك النظرة فهي في الغالب تحجب عني رؤية تفاصيل الوجوه، ولا تجعلني أنصت جيدًا لنبض القلوب.

لذا استأجرنا سيارة لتحلق بنا على الأرض، نفتح شباك نافذتها فيدخل هواء الريف الإثيوبي ببكارة خضرته اللامتناهية إلى صدورنا دون أي استئذان، مساحات شاسعة من الأراضي التي اكتست باللون الأخضر بدرجاته المتفاوتة وأبقار وحيوانات هاجعة ترعى في مراعي أورجانيك من طراز فريد، ثروة حيوانية

لا تقدر بثمن ولا تفكر أن تحصي أعدادها لأنك في الأغلب ستصاب بالفشل.

مشوار طويل من المشقة والمعاناة لم نلتقط أنفاسنا فيه سوى على بعض المقاهي والمطاعم الإثيوبية، من أجل الوصول إلى قرية «النجاشي».

وهل يمكن أن نكون على أرض الحبشة ولا نزور تلك القرية التي كانت أول الأماكن في القارة السمراء التي يدخلها الإسلام، حينما طلب النبي محمد -عليه الصلاة والسلام- من صحابته الهجرة إلى أرض الحبشة، في السنة الخامسة من البعثة (615 ميلادية)، وذلك بعد ما حوربت رسالته بضراوة في مكة المكرمة.

اختار نبينا العظيم تلك الأرض الحبشية التي كان يحكمها النجاشي، أصحمة بن أبهر، الفترة بين عامي 610 و630 ميلادية، ذلك الملك الذي قال صلى الله عليه وسلم «ملك عادل لا يظلم عنده أحد».

إذًا نحن نقف على أعتاب قرية «النجاشي» الواقعة على بعد 30 كم من مدينة مكالي، عاصمة إقليم تجراي، والتي يزورها كل عام ما يقرب من 200 ألف زائر، وتحديدًا من 10 محرم وتستمر لمدة شهر، عندما سألت الشيخ «سعيد أحمد»، أحد المسؤولين بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالإقليم، والذي لم يفارقنا

طوال رحلتنا إلى القرية أجاب «بأن بركة المكان هي السبب، وخاصة أن لدينا اعتقادًا منتشرًا أن كل من زار قبر النجاشي وقبور الصحابة الـ15 المدفونين بالقرية، كأنما زار قبر الرسول محمد».

أهم ما يلفت النظر ما إن تصل إلى قبر النجاشي الذي يعتلي تلًّا كبيرًا يتوسط القرية، هو مياه البئر التي حفرها المهاجرون المسلمون، وما زالت تجري، ويطلق عليها أهل القرية اسم «ماء زمزم»، ويعتقدون أنها مدعاة للبركة والرحمة والغفران.

وعندما قررنا أن نزور قبر النجاشي كان علينا أن نصعد بسيارتنا إلى تلك الهضبة العالية عبر طريق حلزوني في مدة تقترب من نصف ساعة، قبل أن تنحدر إلى أرض شبه منبسطة تتناثر على طرفيها قرى صغيرة.

وضمن هذه القرى، تقع قرية النجاشي، وفي مدخلها تنتصب مئذنة مسجد القرية كأنها ترحب بالزائرين، وقريبة منها تبرز القبة الخضراء لضريح «الملك النجاشي»؛ الرجل الذي خلد التاريخ الإنساني سيرته بعدله ومواقفه التاريخية.

سرعان ما يتسرب إليك قشعريرة تسري في جسدك عندما تقع عيناك من فوق التلة التي ينتصب عليها المسجد، على كنيسة «ماريام» نسبة إلى اسم زوجة النجاشي التي ماتت على

ديانتها المسيحية، في مشهد مهيب يبرز احتضان القرية لدينين مختلفين.

وها نحن نقف أخيرًا أمام المسجد العتيق الذي لا تتجاوز مساحته 200 متر مربع، تمتد على يمينه، صالة لتعليم القرآن الكريم، وتدريس علومه، وفي الجهة الأخرى، مبانٍ تضم غرفًا ومخازن لمشروعات خيرية.

وعلى بواباته البسيطة كتبت لافتة تتحدث عن الأثر التاريخي لهذه القرية، وما تحتضنه من رفات صحابة النبي محمد -عليه الصلاة والسلام-. تلك اللافتة التي قادتنا إلى ساحة متسعة محاطة بسور صخري، عندما دخلناها وجدنا أنفسنا نقف أمام ساحة تضم قبر الملك النجاشي، وقبورًا أخرى عديدة.

الشيخ محمد زينو، المشرف على المسجد والمباني المحيطة به، استقبلنا بترحاب ومودة وباللغة العربية التي يتحدثها بطلاقة قال: إن الجهة اليسرى من هذا الصرح التاريخي تضم مقابر 15 من صحابة الرسول 10 من الرجال و5 من النساء.

أما عن ضريح الملك النجاشي، فمنذ إطلالتك الأولى عليه إلا وتجد نفسك مجذوبًا للنظر إليه، فهو لا محالة يأسرك خاصة عندما ترقب قبر الملك، المدون على ستارة خضراء تغطيه الآية القرآنية: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

والضريح على شكل صندوق يحتضن بداخله المقبرة، وخلفه توجد المقبرة الكبرى لأكثر من 1400 من الأئمة والمشايخ وحفظة القرآن، فضلًا عن مقابر الصحابة التي تعتبر أول مقابر للمسلمين في إثيوبيا وإفريقيا.

وراح الشيخ زينو يتحدث بروحانية شديدة عن البئر التي تحتضنها ساحة القبر «القصة تعود إلى زمن المهاجرين المسلمين الأوائل، عندما جفت الأرض وانعدم الماء عن قرية النجاشي ومن حولها، نزل المهاجرون إلى الوادي القريب من القرية بوصية من الرسول محمد، وهو المكان الذي حطت به رحالهم عند قدومهم إلى الحبشة، حيث بدؤوا بالتكبير والتهليل، وسألوا الله السقيا ثم حفروا الأرض، وما إن ضربوا الأرض، تفجرت عين ماء ما زالت تجري إلى يومنا هذا ولم تعرف النضوب، بل أصبحت مزارًا على غرار العين المباركة الجارية بمكة المكرمة (ماء زمزم)».

راح الشيخ زينو يتمتم بكلمات غريبة وانخرط في البكاء، ليتركنا ويذهب للصلاة.

تركنا الرجل دون وداع، فما كان منا إلا أن قرأنا الفاتحة على ملك الحبشة وبقية الصحابة، وودعنا قرية النجاشي وداعًا يليق بهيبة وجلال المكان.

هل يمكن أن نزور قرية النجاشي ولا نخطو بأقدامنا إلى تلك المدينة التي يلقبونها «قدس إفريقيا» «لاليبيلا»، التي حملت اسم الملك الإثيوبي القديس لاليبيلا، الذي أراد أن يؤسس لقدس إفريقية تمثل أورشليم جديدًا يحج إليه المسيحيون من كل أنحاء العالم. ونجح بالفعل في بناء إحدى عشرة كنيسة بنيت في صخرة واحدة وبإتقان معماري لا يوصف، وقد صنّفتها منظمة اليونسكو ضمن لائحة التراث العالمي.

عندما وقفنا أمام كنائس لاليبيلا أدركنا أننا أمام عقلية قديس نجح بجدارة في أن يجمع ما بين الأبعاد الروحية والمعمارية والفنية، ليؤسس تطورًا في مفهوم الكنيسة الإثيوبية التي ترى في (لاليبيلا) عاصمة للمسيحية العالمية، مستلهمًا نفس الأسماء والأشكال والدلالات الدينية لمكونات القدس في فلسطين ليجعل من «لاليبيلا» معلمًا دينيًّا ومعماريًّا وفنيًّا يجذب الملايين ويخلد ذكراه وأفكاره الدينية والفنية، التي جسدت نزعة استقلالية للكنيسة الإفريقية تحاول أن تقدم إثيوبيا كموطن أصيل وقيادة روحية للمسيحية في العالم، استنادًا إلى مرويات ونصوص دينية حولتها عقلية قديس فنان إلى تحف فنية ومزارات تجسد أشواق الريادة الدينية.

عندما قلت لزميلي الفنان حسام دياب إننا أمام عجيبة من عجائب الدنيا ترقى إلى أن تكون الثامنة، أجابني مبتسمًا أن

كنائس لاليبيلا بالفعل يطلقون عليها في مختلف دول العالم «عجيبة العالم الثامنة»، خطفنا المكان، جذب حواسنا جميعها خاصة عندما تأملنا مليًّا الـ 11 لوحة المحفورة باليد ضمن الصخور، ووجدنا أنفسنا نهرول لنقف مشدوهين امام الكنيسة الأكثر شهرة في لاليبيلا وهي «بيت جيورجيس» المنحوتة على شكل صليب.

أساطير كثيرة يمكن لك أن تسمعها على لسان الإثيوبين الذين تطوعوا لشرح تاريخ وكينونة المكان، خاصة تلك الأسطورة التي تقول إن الكنائس العشر بناها الملك لاليبيلا الذي كان يعمل على الموقع في النهار مع العمال، أما في الليل، فكانت الملائكة تساعد في عملية البناء التي دامت أقل من 25 سنة، وأتت بحسب الأسطورة امتثالًا لأمر إلهي يقضي ببناء قدس جديدة بفضل ملائكة الرب.

لم نملك في لحظات وداعنا لكنائس لاليبيلا الإحدى عشرة، سوى أن نقرأ «أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ليأتي ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض».

بعدها نطلب من سائق سيارتنا التي استأجرناها ببعض من الدولارات أن يطير بنا إلى قرية «الفلاشا»، التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن بحيرة تانا أو تحديدًا مدينة «بحر دار»، ترى هل ما زال لديهم وجود أم أننا سنفاجأ بأطلالهم في استقبالنا،

خاصة بعد أن فتحت لهم إسرائيل أبوابها على مصراعيها؟

أسئلة كثيرة لاحقتني وسرعان ما حسمت الإجابة عليها وجوه مجموعة من الأطفال والصبية الذين استقبلونا، حفاة، وقد تجمعوا أمام طاولات الألعاب التي صنعوها يدويًّا، وفي الخلفية كتبوا على بوابات القرية «هنا قرية الفلاشا» باللغة الإنجليزية وتوسطت العبارة نجمة داود التي تشير إلى اعتناقهم الديانة اليهودية.

الحال لم تختلف كثيرًا عن قرى إثيوبيا الفقيرة، وإن كان الفقر هنا في الفلاشا أكثر وضوحًا، هي نفس الشوارع الترابية التي تزيد آثار أقدام الحيوانات فيها عن البشر، وهو ما يشير إلى أن معظم سكان القرية يعملون بالرعي والزراعة، بينما اكتفت بعض السيدات الإفريقيات ببيع المشغولات اليدوية الإفريقية الشهيرة.

البيوت المبنية بالطين وأوراق الشجر، أو الأكواخ إن صح التعبير كانت الأكثر تعبيرًا عن الفقر الذي يعانيه هؤلاء الإثيوبيين، الذين لم تمتد لهم سوى أيادي «تل أبيب» لتدعوهم للهجرة والعمل هناك.

فيما كانت الخلفية التاريخية تعيد إلى أذهاننا الاعتراف بأن يهود «الفلاشا» إحدى الأقليات في إثيوبيا، إذ يمثلون نحو 15% من الشعب الإثيوبي، والفلاشا باللغة الأمهرية، هم «المنفيون» أو «الغرباء»، هاجر ما يقارب 85% منهم إلى إسرائيل في عمليتي

«موسى» في 1984، وسليمان في 1991، ولا تزال هجرات الفلاشا إلى إسرائيل متواصلة حتى الآن، ورغم ذلك ما زالت القبيلة تحتفظ بالعديد من الطقوس المختلفة عن اليهود، فهم يعتبرون أنفسهم السبط الثالث عشر لبني إسرائيل، ويحق للرجل الفلاشي الزواج من سبع نساء، من بين أبرز طقوسهم ذبح «خروف» في عيد الفصح ونثر دمه حول الكنيس، وهو ما يعتبره اليهود من الأشكيناز من الوثنية، بل ويشككون بيهوديتهم عبر هذا الطقس.

ومع أولى خطواتنا في القرية كان اسم واحد يطاردنا «جيسرين»؛ تلك السيدة التي ترعى المعبد اليهودي في قرية الفلاشا، لنعلم أن أبواب المعبد مغلقة ولا تفتح غالبًا إلا مع قدوم الزوار الإسرائيليين إليها وهي الزيارات التي وصفتها «جيسرين» بالكثيرة، وبدأت منذ سنوات كثيرة، سنوات أغفلنا فيها ظهيرنا الجنوبي الأسمر حتى بات يؤرقنا.

جيسرين ليست ودودة كثيرًا ولكنها سرعان ما تحدثت وقد ارتسم العبوس على وجهها، «معظم يهود الفلاشا هاجروا إلى إسرائيل في منتصف الثمانينيات. منذ عمليتي موسى (1984) وسليمان (1991)، عبر جسور الشحن الجوي التي أقيمت بين تل أبيب وأديس أبابا، عبر جنوب السودان ومن خلال التسهيلات التي قدمها نظام الرئيس السوداني السابق جعفر النميري لإتمام عمليات الشحن الجوي لأعداد كبيرة من الفلاشا، الذين حطوا

في القدس الغربية والأراضي الفلسطينية حيث ساهم جعفر النميري في إتمام أول عملية تهجير للآلاف من الفلاشا أطلق عليها اسم «عملية موسى»، وذلك في العام 1984. وتواصلت فيما بعد عمليات تهجير الفلاشا من إثيوبيا إلى إسرائيل حيث هاجر أكثر من 20 ألفًا من الفلاشا في العام 1985 في عملية أطلق عليها اسم «عملية سبأ» وذلك بفضل جورج بوش «الأب» نائب الرئيس الأمريكي وقتئذ، والذي زار الخرطوم من أجل طمأنة النميري وتأكيد الضمان الأمريكي لنجاح العملية، ووافق النميري بشرط عدم توجه الطائرات الأمريكية التي ستنقل المهاجرين إلى تل أبيب مباشرة بل عبر مدينة أخرى. وعبر مطار مهجور «العزازا» بشرق السودان بالقرب من مراكز تجمع الفلاشا، تمكنت المخابرات الأمريكية وعملاؤها من تنفيذ العملية، ونقلتهم الطائرات العسكرية الأمريكية مباشرة إلى مطار عسكري إسرائيلي في منطقة النقب، أما في عملية سليمان 1991، فقد هاجر عدد كبير يقارب 14000 من الفلاشا من إثيوبيا إلى تل أبيب في 25 مايو 1991، في عملية سميت بعملية سليمان. وتمت العملية بقيادة نائب رئيس الأركان الإسرائيلي أمنون شاحاك في عهد رئيس الوزراء إسحاق شامير وحتى الآن، فيما فشل الكثير من المهاجرين في الاندماج في المجتمع اليهودي.

صمتت «جيسرين» اليهودية حتى النخاع، والقارئة أيضًا والتي تعطيك انطباعًا بأنك أمام ذاكرة كمبيوترية من الطراز الأول،

فسألتها بهدوء: ولماذا لم تهاجري إلى تلك اللحظة، هل خوفًا مما يواجهه أقرانك في إسرائيل من تجاهل وإهمال؟

بلا مبالغة أصاب وجهها الاصفرار، ويبدو أنني مسست بعض من جروحها التي تتفنن في أن تخفيها ولكن ملامحها كانت تنطق بما لم يتحدث به لسانها. «أورشليم» هي وطننا المقدس الذي لن نتخلى عنه، وربما الظروف السيئة التي تمر بها إسرائيل من حوادث وإرهاب من قبل الفلسطينيين هو ما جعلها متعثرة في توفير مطالب الفلاشا، ثم إنه يكفينا أننا نعيش بالقرب من معابدنا، ولم ولن أهاجر قبل أن يرحل آخر يهودي إثيوبي إلى أرضنا الموعودة.

حديثها كان كفيلًا بأن يجعلنا نطلب من سائق السيارة أن نعود أدراجنا ونكمل رحلتنا بعيدًا عن الفلاشا، غادرت وفتحت النافذة على مصراعيها لعل نسمة هواء تدخل إلى صدري، وتذكرت أنه في سبعينيات القرن العشرين حرمت السلطات الإثيوبية النشاط الصهيوني في البلاد وصعدت الإجراءات القانونية المضادة لليهود، الأمر الذي أقنع القيادة الإسرائيلية بضرورة بذل الجهود لجلب اليهود الإثيوبيين إلى أرض الأجداد. وبسبب تحريم النشاطات الصهيونية اضطر الموساد للتدخل في جلب بني «بيتا إسرائيل» إلى أرض الميعاد، في إطار عملية سرية، ضمنت رحلات جوية أطلقت من السودان. واضطر اليهود الإثيوبيين المشي على

الأقدام ليصلوا إلى السودان، وكانت تلك رحلة صعبة جدًّا لسوء الظروف وبسبب الشمس الحارقة ومجموعات لصوص الصحراء.

وحسب معطيات وزارة الاستيعاب عاد إلى إسرائيل أكثر من 40 ألف يهودي في إطار عمليات مختلفة سميت بـ«عملية شلومو» (على اسم الملك سليمان) وعملية موشيه وإلى آخرها.

أخرج من «الفلاشا»، وصوت كابتن الطائرة معلنًا إقلاع طائرتنا من مطار العاصمة الإثيوبية «أديس أبابا» إلى مطار «عنتيبي» العاصمة الأوغندية، كان كفيلًا بأن نحاول الاسترخاء قليلًا استعدادًا لما تخفيه لنا أرض أوغندا.

الفصل الثامن

على أطلال النيل

ساعة واحدة من مطار العاصمة الإثيوبية «أديس أبابا» كفيلة بأن تنقلنا إلى مطار «عنتيبي» في أوغندا «قلب إفريقيا النابض».

لا أعرف لماذا تسرب إليّ إحساس بالرهبة، وقشعريرة دبت في جسدي لم أجد لها أي مبرر، والحقيقة أنها لم تستوقفني كثيرًا، خاصة أن فخامة المطار وحسن تنظيمه وسهولة إجراءات دخول البلد، دفعتني دفعًا للشعور بأنني على أرض أوروبا وليس بلدًا في القارة العذراء.

الهدف محدد والوقت محسوب وكل خطط زيارتنا لأوغندا مدروسة، قلب إفريقيا تعني الكثير لنا ولكن الأهم والأدق والأخطر على الإطلاق؛ هو أن نطير إلى ضالتنا المنشودة مدينة «جنجا» لنلتقي لقاء حميميًّا مع «بحيرة فيكتوريا»، ثاني أكبر بحيرة للمياه العذبة في العالم من حيث المساحة والأكبر في إفريقيا حيث تبلغ مساحتها 68870 كيلومترًا.

بسهولة استأجرنا سيارة من أحد المكاتب السياحية المنتشرة والرائجة في المطار لتقودنا إلى «جنجا». نسمة هواء اقتحمت صدري، ورذاذ يحمل رائحة أمطار صباحية بكر تلاطف وجهي ما إن فتحت شباك النافذة. صوت زميلي الفنان حسام دياب متعجبًا «إيه ده، معقولة؟» جعلني أنتبه مليًّا للمشهد الذي شعرت معه بأن صفعة قوية لطمت وجهي، كان من اليسير أن أعرف

سر سؤاله بمجرد أن وقعت عيناي على علم إسرائيل مرفرفًا في محيط سماء مطار عنتيبي القديم، والذي كان علينا المرور بجانبه في رحلة الخروج من «عنتيبي».

طلبنا من السائق أن ينتحي جانبًا، فوافق بشرط ألا يتعدى الانتظار بضع دقائق، وما إن رفع حسام عدساته ليلتقط بعض الصور، جاء صوت السائق مهللًا «نووووو» «بلييز» «بيج بروبليم». إذًا نحن في منطقة عسكرية، قصرنا الشر واكتفينا بالجلوس في السيارة ومراقبة الهواء الذي راح يغازل العلم الإسرائيلي، الذي يرفرف في السماء ليكون شاهدًا على النصب التذكاري الذي شيده الإسرائيليون في مطار «عنتيبي»، بالقرب من المكان الذي شهد العملية العسكرية الشهيرة التي نفذها جنود القوات الخاصة الإسرائيلية لإنقاذ الرهائن الذين اختطفتهم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في 28 يونيو 1976، وأجبروا الطائرة التي كانت تحمل أكثر من 300 إسرائيلي على الهبوط الاضطراري في مطار «عنتيبي».

لا داعي إذًا للوقوف. هكذا جاء صوت حسام طالبًا من السائق أن ينطلق بالسيارة لتبدا الرحلة.

لم تفلح شوارع «عنتيبي» وجمال مدينة «كمبالا» التي مررنا عليها طوال الطريق لمدينة «جنجا»، والتي تزيد انطباعك بأنك على أرض أوروبا، في أن تجعلني أفيق من صدمة العلم الإسرائيلي الذي اصطدمت به مع أولى خطواتي في أوغندا.

«فاض الكيل»، هكذا حدثت نفسي عندما استعدت بعض تفاصيل عملية «عنتيبي» الشهيرة؛ عندما أقلعت من مطار شرم الشيخ أربع طائرات على متنها 200 جندي إسرائيلي من وحدات مختلفة (الطائرات أقلعت من شرم لأن سيناء كانت تحت الاحتلال في ذلك الوقت) لفك أسر الرهائن الإسرائيليين في مطار أوغندا، وبعد 90 دقيقة من المواجهات العنيفة قتل في العملية 45 جنديًّا أوغنديًّا، وتم تدمير 11 طائرة مقاتلة من طراز ميغ 17 السوفيتية الصنع، وقتل 4 جنود صهاينة وكان من بينهم يونتان نتنياهو شقيق بنيامين نتنياهو، كما أصيب الملازم أول سورين هيرشكو إصابة بالغة تركته قعيدًا، وبالطبع استشهد كل الفدائيين الفلسطينيين الذين حاولوا تنفيذ هذه العملية لمقايضة إسرائيل للإفراج عن الأسرى في السجون.

هذا النصب التذكاري الذي شيده الاسرائيليون بأياد أوغندية على أرض أوغندا، وهو الذي زاره ليبرمان عندما كان يشغل منصب وزير الخارجية في زيارته الشهيرة لبلاد حوض النيل عام 2009 وقال: «إنه لمن العسير على المرء أن يعبر عما يجول بخاطره في لحظة كهذه بالنسبة لإسرائيل، لقد مثلت عملية «عنتيبي» واحدة من أنصع صفحات تاريخنا، عندما أثبتت تصميمنا علي محاربة الإرهاب وتحرير مواطنينا». وهو نفس النصب التذكاري الذي انطلق منه رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في زيارته عام 2016 لإحياء الذكرى الأربعين لوفاة شقيقه، حيث قال بالحرف: «إسرائيل عادت لإفريقيا، وإفريقيا عادت إلى إسرائيل».

آه أوغندا. قلب إفريقيا النابض، ماذا تخفي سحر طبيعتك البكر لنا؟ سؤال أفقت قبل أن أجيب عنه، فها نحن قطعنا 3 ساعات من «عنتيبي» إلى «جنجا» لنلتقي وجهًا لوجه مع بحيرة فيكتوريا.

كان قرص الشمس يداعب صفحة بحيرة «فيكتوريا»، محاولًا ألا يختفي ولكن أبدًا لم يفلح فلقد آن الأوان لتحتضنه المياه التي تجري في هدوء وانسيابية معلنًا دخول الليل، لنقضيه في أحد فنادق «جنجا» المطلة على بحيرة فيكتوريا، وآه من ليل «جنجا»، وآه من ذاك النوم الذي يفارق عينيك لحين بزوغ أول خيط من خيوط الشمس، وكيف ترى عيناك النوم وصوت «خفافيش الظلام» حولك في كل مكان، وصوت اصطدامها بجدران غرفتك التي وضعت لها أسوارًا عالية من الحديد يثير الفزع والرهبة.

ولأن الليل مهما طال له نهاية، فلقد انتظرنا نهايته بفارغ الصبر لتبدأ رحلتنا في باكر اليوم التالي إلى منبع بحيرة» فيكتوريا»!

كانت عقارب الساعة تشير إلى السابعة صباحًا، عندما بدأت سيارتنا تتحرك من أمام الفندق متجهة إلى «شلال ريجون» حيث منبع نهر النيل. «ديسون» مرافقنا الأوغندي راح يتحدث ما يقرب من ربع ساعة وهي المدة التي قطعناها للوصول إلى «شلال ريجون» قائلًا: إنه عبارة عن جدار صخري بارتفاع أربعة أمتار، وكان يستخدم في التصرف في المياه وهذه النقطة تعرف باسم «نيل فيكتوريا»، وهو النقطة التي بدأ منها نهر النيل لكي ينطلق إلى البحر الأبيض المتوسط من خلال وسط وشمال أوغندا مرورًا

بالسودان وصولًا إلى مصر. وتستغرق رحلة مياه النيل 3 أشهر في هذه النقطة إلى أن تصل إلي مصر. لم أكن في حاجة لسماع صوت مرافقي ما إن وقفت أمام «شلال ريجون»، فالمشهد لا يستطيع قلم وصفه.

استسلمت تمامًا لتلك الحالة التي انتابتني أمام الرذاذ الذي يداعب وجهي، لأستعيد جنون النيل الحبشي «الأزرق»، الذي انتابته الحكمة وحطت عليه السكينة فبات فيلسوفًا في فيكتوريا، مختلفًا بكل المقاييس.

رحت بعيدًا بذاكرتي وتذكرت أنه في عام 1858 حاول المستكشفان البريطانيان سبيك وبرتون الوصول إلى منابع النيل في رحلة بدآها في شرق إفريقيا، فوصلا لبحيرة «تنجانقا» ثم عادا وفي منتصف الرحلة حالت ظروف «برتون» الصحية دون الاستمرار في الرحلة، التي واصلها سبيك إلى أن اكتشف أن منبع النيل من هنا في تلك النقطة التي أقف عليها بقدمي، وقد أطلق على البحيرة اسم «فيكتوريا» نسبة إلى ملكة إنجلترا!

لفت نظري وجود لافتة كبيرة عند شلالات «ريجون»، وقد كتبت باللغة الإنجليزية وهي تحكي قصة اكتشاف «سبيك» لبحيرة «فيكتوريا». قبل أن أكمل قراءتي فاجأني مرافقي قائلًا: تلك هي اللوحة التي تحكي قصة اكتشاف منابع النيل، والتي اكتشفها رحالة إنجليزي من أصل يهودي على ما أظن أنه إسرائيلي ويدعي «سبيك». خرقت أذني مقولة مرافقي فاستوقفته وقلت له عفوًا

«سبيك» بريطاني وقد أطلق اسم «فيكتوريا» نسبة لملكة إنجلترا.

نسيت فلسفة النيل وحكمته لأتقمص شخصية مثيله الأزرق لتنتقل لي حالة جنونه، دخلت مع مرافقي الأوغندي في مناقشة طويلة حول جنسية «سبيك»، من خلالها عرفت منه أن كل الأفواج الإسرائيلية التي رافقها هو والتي تأتي إلى أوغندا، إما للسياحة أو لتنفيذ مشروعات واستثمارات بين إسرائيل وأوغندا. قالوا له إن اليهود هم مكتشفو منابع النيل! حاولت أن أصلح له ما أفسده المفسدون، ولكنها تظل محاولة فردية جاءت بالصدفة!

وجدت صخرة يمكن لي أن أرتمي بجسدي عليها، بعد سماع ما لم يسرني من مرافقي ديسون، ابتعدت قليلًا لأجلس عليها وأمامي ذلك المشهد العظيم، لا أعرف لماذا وجدتني أدندن بكلمات الراحل إبراهيم ناجي التي تغنت بها الست:

أين من عيني حبيب ساحر، فيه نبل وجلال وحياء

واثق الخطوة يمشي ملكًا، ظالم الحسن شهي الكبرياء

عبق السحر كأنفاس الربا، ساهم الطرف كأحلام المساء

مشرق الطلعة في منطقه، لغة النور وتعبير السماء

« الأطلال» لم أملك سواها؛ لربما تعبر عما تراه عيناك وتسمعه أذناك وأنت واقف بقدميك في قلبٍ هضبة البحيرات الاستوائية، متيقنًا بأن ناجي كتب عاشقًا واصفًا ليس لحبيبة قلبه بل لمياه

النيل في بحيرة فيكتوريا!

سرعان ما انطلقنا إلى مكان آخر نستطيع أن نرى منه بشكل أفضل مياه النيل متدفقة لتكمل رحلتها من بحيرة «فيكتوريا» إلى السودان.

تحدثت مع مرافقي في أن هذا المكان بالتأكيد يجذب السياح إليه، فرد بفخر وثقة: بالطبع وكان آخر من زاره ليبرمان وزير الخارجية الإسرائيلي.

تسمرت قدماي في أرض بحيرة «فيكتوريا» الحمراء الطينية، وحدثت نفسي قائلة: هنا وقف ليبرمان الذي هدد مصر يومًا بقصف السد العالي، ومن بعده نتنياهو. لقد وقفا عند حدود بحيرة «فيكتوريا» الضخمة التي تقع على حدود كل من أوغندا وتنزانيا وكينيا، ليتأملا كيف ينبع النيل وكيف يسير في رحلته الطويلة من أجل الوصول إلينا، ترى هل كانت زيارة سياحية أم ميدانية؟!

وما الذي جعلهما يزوران هذه المنطقة بالتحديد. رغم أنها لم تكن مدرجة في زيارة الاثنين؟

فيم يفكران وماذا يخفيان في جعبتهما؟!

قطع مرافقي حالة تأملي وعلامات استفهامي قائلًا دون أن أسأله:

أوغندا وإسرائيل دولتان لهما علاقات وطيدة في السياسة والاقتصاد، وهما تعملان لدينا في مجالات عديدة أهمها مستحضرات التجميل والسجاد والموكيت والأدوية وإطارات السيارات، وتصدران لنا المنتجات الاستهلاكية مثل الألبان وأنواع من العصائر والجبن.

تلك هي شلالات فيكتوريا أو «الدخان الذي يهدر» كما تعرف باللغة المحلية، الأكثر اتساعًا في العالم، رغم أنها ليست الأكثر عرضًا ولا ارتفاعًا، حيث يبلغ اتساعها خمسة آلاف وستمئة وأربعة أقدام (1708 أمتار تقريبًا)، ويتفاوت ارتفاعها بين مئتين واثنين وستين قدمًا وثلاثمئة وأربعة وخمسين قدمًا (ما بين ثمانين إلى أكثر من مئة متر تقريبًا)، أي أعلى بمرتين تقريبًا من شلالات «نياجارا» في قارة أمريكا الشمالية على الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا.

ونظرًا لأن معدل التدفق على الشلالات يعتبر الأعلى في العالم، فدائمًا توصف شلالات فيكتوريا باعتبارها أعظم ستارة مائية على كوكب الأرض، وهو ما يجعلها تتبوأ مكانها بجدارة كواحدة من عجائب الدنيا الطبيعية السبع، وإذا كانت مصر تستمد 85% من مياهها من الحبشة فإنها أيضًا تستمد الباقي من بحيرة «فيكتوريا» .

كنت أعرف أنني سأعود إليها مرة ثانية، وقد حدث عندما كررنا الرحلة إلى منابع النيل بعد رحلتنا الأولى بثلاث سنوات، الفارق

كان كبيرًا أحسسنا به في شلالات فيكتوريا، التي فاجئتني بأنها اختفت ليتحول النهر الخالد في أوغندا إلى بركة، مجرد بركة مياه راكدة لا يقطنها سوى الموت، لا شيء سوى نعيق الغربان، وبعض فقراء أوغندا الذين يستقلون قواربهم البدائية الصغيرة في محاولة فاشلة لصيد الأسماك التي رحلت عن المكان هي الأخرى.

عندما سألت عن السبب كانت الإجابة «سد أوغندا» الذي بني وسط منابع بحيرة فيكتوريا منذ فترة، والذي ساهم في تقليل منسوب مياه النهر ونتيجة ذلك انتقلت المنابع إلى ضواحي مدينة جنجا.

بناء السد تم بتمويل إيطالي صيني مشترك، وما زالت البحيرة في انتظار بناء 4 سدود، منها 2 بإيعاز وتمويل إسرائيلي، ولعل هذا ما قد يفسر زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي ليبرمان ومن بعده نتنياهو منذ سنوات إلى أوغندا، وبالتحديد منابع النيل هناك، لمقابلة العديد من المسؤولين الأوغنديين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية موسيفيني الذي رحب به ترحيبًا عميقًا وقدم له وجبة دسمة من رجال الاقتصاد والأعمال الأوغنديين ونحن في سبات عميق.

هكذا بنت أوغندا السد، وما زالت تنتظر العديد من المشروعات، ومن قبلها إثيوبيا التي تنفذ حاليًا مشروعها وهكذا بدأ المشوار، وآهٍ من آخر هذا المشوار.

الفصل التاسع

هنود ويهود وأسود

كينيا هي أرض الزعيم الاشتراكي «جومو كينياتا»، الذي ربطته بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر صداقة عميقة انعكست بقوة على العلاقات التي اتسمت بالمودة والصداقة ما بين الشعبين المصري والكيني، فكان الألم واحدًا والفقر والوجع والهم مشتركة.

وهي تلك الأرض نفسها التي كانت من أوائل الدول التي بادرت بالتوقيع على الاتفاقية الإطارية التي تعيد توزيع حصص مياه النيل ما بين دول المنبع والمصب.

وهي أيضًا نفس الدولة التي قبلت التوقيع دون موافقة مصر وكما يقولون ما خفي كان أعظم.

هى ببساطة أرض «التراب والأزهار»، «المدينة الخضراء»، «البوابة المفتوحة للمغامرات والسفاري» كينيا.

أعترف أننا هرولنا إلى تلك المحطة من محطات حوض النيل، من أجل أن نلتقط أنفاسنا، كينيا بالنسبة لنا رحلة مختلفة وجاذبة ومجنونة ومتفردة، ربما وجدنا فيها ما يشبه ذلك الجنون الذي يسري في عروقنا، كينيا التي رسمنا لرحلتنا إليها صورة في مخيلتنا، تكاد تقترب كثيرًا من فكرة الاغتسال بعد يوم بل أيام وربما أسابيع طويلة من الشقاء والعناء والارتطام بواقع مرير، ممزوج بنجمة داوود التي عكرت صفونا وأخذت منا الكثير.

السفاري في «مازايمارا»، الأسود تحوم والغزلان تركض،

الجاموس، والحمار الوحشي، والبابون، والزرافات، ورحلة الأفيال، ولغة واضحة وصريحة ننصت إليها في دنيا الغابة، طيور الفلامنكو البديعة تحتضننا بريشاتها الملونة على ضفاف بحيرة ناكورو، بكارة الوجوه وبياض القلوب، البدائية وجهًا لوجه، أحلام كثيرة ومشاهد لا حصر لها داعبتنا طوال ساعة ونصف، هي المدة الزمنية التي قطعها كابتن الطائرة بنا من مطار «عنتيبي» إلى أن حط على أرض العاصمة الكينية «نيروبي».

بمجرد أن أنهينا إجراءات الدخول في غمضة عين إلى قلب المدينة «نيروبي» حتى انتابتني حالة من حالات القلق والرهبة، ويبدو أن صوتي كان مسموعًا لحسام دياب عندما تخيلت أنني أحادث نفسي: «ماذا تخفين لنا نيروبي؟ ترى هل ستمنحنا بعضًا من الوقت لمتعة السفاري، أم أن نيل بحيرة فيكتوريا الذي يغمرها بخيره سيحول بيننا وبين المازايمارا؟».

سرعان ما جاءني صوت حسام مهللًا: سنبدأ من حيث انتهينا في أوغندا، ولكننا سننتهي من عند بداياتنا الحقيقية «البدائية».

سرعان ما استسلم كلانا إلى غرفته في الفندق، أغلقت الباب بإحكام فالتحذيرات من السرقة والعنف لا تنتهي، أدرت وجهي إلى باب غرفتي ورحت في سبات عميق، فلقد كان في انتظارنا يوم مليء بالعمل على ملف النيل.

***

جون راو نياوروا هو رجلنا المنشود في رحلتنا إلى كينيا، فهو المسؤول المباشر عن ملف المياه في ذلك الوقت، وهو الذي قام بتمثيل الجانب الكيني في الاجتماعات والمفاوضات بين دول المنابع ودولتي المصب، وهو أيضًا الذي قام بالتوقيع على الاتفاقية الإطارية متوافقًا ومشتركًا مع بقية الدول الخمس دون موافقة مصر والسودان.

ذهبنا إلى مكتبه الذي يتوسط العاصمة الكينية نيروبي، والحقيقة أن حفاوة الرجل في استقبالنا جعلتني أكثر تحررًا في إدارة الحوار معه الذي بدأته بتساؤل هادئ: «رغم العلاقات المصرية الكينية التي اتسمت طوال التاريخ بالود والصداقة، والتي لم تتعرض لأي هزة كانت منذ زمن بين الزعيمين عبد الناصر وكينياتا، إلا أن كينيا ربما جاءت بمفاجأة ثقيلة عندما كانت من أوائل الدول التي وقعت على الاتفاقية الإطارية التي تعرف نصها جيدًا».

ابتسم الرجل ابتسامة لم تفارقه طوال ساعتين هما مدة الحوار لأجده يتحدث:

«الاتفاقية الإطارية قد سبقها العديد والعديد من المفاوضات بالتقريب ما يقرب من 10 سنوات، وكان الهدف الرئيس لدول المنابع هو التفاوض على إدارة المنابع بشكل جيد وعادل، منطقة المنابع تضم ما يقرب من 180 مليون مواطن وتتكون من 10% من مساحة إفريقيا، ولا بد من إيجاد طريقة للتعاون

والاستفادة من مصادر مياه النيل، والاتفاقيات التي كانت تدير المياه تم توقيعها أثناء الاحتلال البريطاني وبالتالي الدول لم توقعها، بل الاستعمار هو الذي وقعها وفقًا لمصالحه ورغباته لذا هذه الاتفاقيات قد أحدثت نوعًا من التوتر بين دول المنابع التي ترى أنها لا تحقق لها مصالحها، وبين دول المصب التي ترى فيها ومن خلالها عكس ذلك تمامًا.

ومنذ عام 1967 بذلت محاولات لإنتاج الطاقة من خلال تجميع المعلومات حول مصادر المياه، وللأسف لم تنجح وبالتالي تم الاتجاه إلى مؤسسة أطلق عليها اسم «تكنونايل» وهي تعني التعاون بين دول حوض النيل، وكانت ممثلة في دول «مصر، السودان، كينيا، تنزانيا، أوغندا»، ولم يكن لإثيوبيا أي تمثيل فيها، ثم بعد ذلك جاءت مؤسسة «الأندوجو» وهي كلمة تعني الأخوة والصداقة، ويجب أن نقول هنا إن كل هذه المبادرات لم تسفر عن أي حلول أو استفادة كاملة من مياه النيل، وفي عام 1989 تم التوصل إلى مبادرة «حوض النيل» والتي تهدف إلى الاستخدام العادل لمياه النيل، وكانت تهدف إلى أمرين غاية في الأهمية، أولهما وجود عدة مشروعات وعمليات تدريبية كانت تتم في مصر لتحديث الاستفادة المثلى في طرق الري في الزراعة وتحويل الطاقة، وكان للمبادرة دور في معظم دول الحوض وكان المقر الرئيس لها في إثيوبيا، ثم مبادرة حوض النيل في «عنتيبي» والتي كانت لتجميع دول الحوض اجتماعيًّا قبلما يكون هذا التجمع سياسيًّا، وتمثل في تبادل الخبرات الثقافية والفنية

والاجتماعية وضمت تلك المبادرة ليس فقط شخصيات سياسية، بل كان هناك أيضًا مجموعة من الحكماء والمثقفين والصحفيين الممثلين عن كل دول حوض النيل المشتركة، وكانت الأحاديث تنحصر في وصول لحلول التجميع والاتفاق وليس التفريق والاختلاف.

ولكن ظلت الأمور كما هي، ولم يتفق الخبراء على الإجابة عن السؤال الذي يشكل الأزمة المحورية بين كل دول حوض النيل، ألا وهو؛ كيف يتم التعامل مع الاتفاقيات الاستعمارية التي تم توقيعها في غيابنا؟ وكان الحل الذي توصلنا إليه أن نعيد الجلوس مرة أخرى، ولكن في حضور كل الدول وأي دولة تريد أن تقيم مشروعًا يجب أن تأخذ موافقة كل الدول».

صمت الرجل فوجدتها فرصة لأقول له: ولكن بعد كل المفاوضات عبر التاريخ التي قمت بتوثيقها الآن، بدأت إثيوبيا في بناء سد الألفية دون موافقة مصر.

اسمحي لي أن أكمل حديثي وسوف أجيبك عن ذلك السؤال الهام والمحوري بعد قليل.

وواصل: «بداية يجب أن نحدد ما هي نوعية المياه التي نستخدمها، هل هي تلك التي تسقط علينا من الأمطار، أم أنها تلك التي تجري عبر البحيرات مثل «تانا» في إثيوبيا و«فيكتوريا». في مختلف دول الحوض الإجابة عن هذه التساؤلات استدعت

وجود لجنة للتفاوض للبحث عن كل هذه المشاكل وقد كان ذلك في الاجتماع الذي انتهى في مصر عام 2004، وأسفر عن انطلاق مبادرة حوض النيل، وأعطى لكل الدول المشتركة الحق في تعيين مجموعة من خبرائها وكنت أنا رئيس المفاوضات عن الجانب الكيني، ووضع الخبراء المفوضون القواعد التي ستدير عملية التفاوض وكان لدينا 39 مادة يتم التفاوض عليها، وكانت أهم مادة وقع عليها الخلاف هي المادة «14»، وطلب الجانب المصري عدم التفاوض على هذه المادة لأن موضوعها حساس جدًّا بالنسبة لمصر، ونحن أعطينا لمصر الحق في التفكير فيه وكان هذا منذ عام 2005، فخرجت مصر علينا بما يسمى «اتفاقية الأمن المائي» ولم تختلف الدول مع مصر بل إن كلها وافقت على حفظ الأمن المائي بعضها لبعض. ولكن لم يحل الخلاف على المادة «14 ب» التي لم توافق مصر عليها.

ورأيي الشخصي أن كل هذا التعطيل الذي تعرضت له الاتفاقيات بسبب الاختلاف المصري على المادة «14 ب» ويمكن أن يحل لو أننا حيدنا هذه المادة، بمعنى أن نقوم بتفعيل الاتفاقية ما دام الجميع متفقًا عليها ونقوم بتأجيل تلك المادة على أن تتم مناقشتها والاتفاق عليها لاحقًا. والمادة «35» تتيح إنشاء مفوضية لدول حوض النيل لاستبدال هذه المبادرة الانتقالية، والمفوضية مهمتها الأساسية تطوير القواعد واستخدامات الدول للمياه والإسراع بحل المادة 14 ب، ومنذ اللحظة الأولى التي ستنطلق فيها فعاليات المفوضية سوف تقوم بحل الخلاف على المادة 14

ب، وأعتقد أن هذا إجابة على سؤالك الأول: لماذا كينيا وقعت على الاتفاقية؟ والإجابة ألخصها لك بأننا كدولة منابع رأينا أن بعد كل هذا التاريخ يجب أن يتم التوقيع لأننا تأخرنا واستهلكنا أوقاتًا كثيرة في المفاوضات والمناقشات، وهذا التوقيع لا يعني أننا نؤذي مصر بالعكس نحن لدينا استعداد أن تكون هناك فرصة من أجل الوصول إلى حل لهذه المشكلة.

لذا لا مفر من تفعيل المفوضية وأكرر يجب على مصر إعادة النظر في موقفها من الاتفاقية الإطارية، وإذا كانت المادة 14 ب قد أصبحت تشكل عائقًا وعقبة إلى هذه الدرجة فيمكن أن نقوم بتفعيل الاتفاقية بالبنود التي اجتمعت عليها مصر وبقية الدول، ويتم إرجاء «المادة 14 ب» إلى ملحق خاص بها ويتم عقد مناقشات ومفاوضات تخصها ولكن بعد إنشاء المفوضية وتفعيل الاتفاقية الإطارية. وردًّا على سؤالك الخاص بسد الألفية الإثيوبي؛ أقول لك إن الحل يكمن في توقيع مصر أيضًا على الاتفاقية لأنها لو انضمت إلى الدول الموقعة هذا التوقيع، سيعطيها الحق على الفور في الاعتراض بل والدعوة الفورية لاجتماع تحضره كل الدول الموقعة بما فيها إثيوبيا، وعرض الأزمة أو المشكلة التي تتعرض لها مصر بسبب سد إثيوبيا وفي هذه الحالة سيكون لمصر الحق في أن تتكلم وتعترض، وكل ما أريد قوله للمسؤولين المصريين إن مصر يجب أن تنضم للاتفاقية لأنه لو حدث خلاف بينها وبين إثيوبيا، واستمر هذا الخلاف دون التوصل لحلول في هذه الحالة يمكن لمصر وسيكون لها كل الحق أن تلجأ إلى

المجتمع والمحاكم الدولية الذي يمكن أن يصل إلى حل لأزمتها، لذا أؤكد على هذه النقطة لصالح مصر وليس لصالح أي دولة أخرى، عليكم حضور جميع المفاوضات وطرح موضوع سد الألفية، ويجب أن تكون مصر جزءًا من الاتفاقية عندما تقوم بالتوقيع عليها في هذه اللحظة فقط وإذا ثبت أن سدود إثيوبيا سوف تؤثر على حصة مصر في مياه النيل مما يسبب أضرارًا جسيمة للأمن القومي المصري، هنا في تلك الحالة المفوضية وفقًا للاتفاقية الإطارية يمكن لها أن تتخذ إجراءاتها بوقف بناء سد إثيوبيا. إذًا دول حوض النيل من خلال المفوضية هي وحدها القادرة على حل مشاكل وخلافات دول الحوض التي تشمل دول المنابع ودولتي المصب وإذا لم يقتنع المسؤولون المصريون برأيي فعليهم أن يستشيروا الخبراء ورجال القانون الدوليين وليس المصريين فحسب لأن الأمر في حاجة إلى حسم وسرعة».

من رجل المياه، إلى الاقتصاد وعالم الأعمال الكيني الذي تقبض عليه بقبضة من حديد العديد من الدول على رأسها الهند والصين وإسرائيل ننتقل إلى موي راؤول، أحد أهم الشخصيات الاقتصادية وأحد أبرز رجال الاعمال الكينيين.

والده كيني ووالدته من أصل هندي، عاش منتصف عمره في الهند ثم استقر مع أسرته في كينيا، تحدث الرجل بطلاقة شديدة وحرية أشد عندما قال: الاقتصاد الكيني مفتوح وينطبق عليه صفة الليبرالية ولكنه في قبضة الهنود واليهود، الهنود لأنهم هنا

منذ زمن وتحديدًا منذ فترة الاحتلال الإنجليزي لبلادهم، عندما كانوا يأتون إلى كينيا للعمل في مجال البناء، ولم يعودوا بل استقروا وكونوا عاصمة تجارية في هذه الأيام بينما لم يكن من حق الأفارقة فتح حساب لهم في البنوك، لذلك فإن الوجود الهندي هنا ضروري للاقتصاد بل هو تاريخي أيضًا.

صمت الرجل قليلًا، لا أعرف لماذا شعرت بتردد ما في عينيه، وسرعان ما بادرته بالقول: إذا كان وجود الهنود تاريخيًّا في كينيا، فإن الوجود الإسرائيلي حديث ويبدو أن له أسبابه.

أجابني بابتسامة خبيثة ارتسمت على وجهه: مبدئيًّا الوجود الإسرائيلي في كينيا منذ أيام الاستعمار ولدينا يهود من أوروبا الشرقية، ومواطنون فروا من الحرب العالمية الثانية واستقروا هنا كرجال أعمال وهذا لا ينفي أن العلاقات الكينية الإسرائيلية علاقات جيدة، خاصة في السنوات الأخيرة، خاصة أنهم يقدمون للشعب والحكومة الكينية المساعدات وليس في الاقتصاد فحسب، وعلى سبيل المثال لا الحصر يساعدوننا في مجال البناء والتجارة والزراعة وسلاح الطيران، والأهم من ذلك كله أنهم يقومون بتدريب عناصر من الجيش الكيني ويشرفون عليه، هذا غير أن كبار الدولة يستثمرون أموالهم داخل إسرائيل نفسها وإذا كانت كينيا تحتل المركز الثاني في العالم بتصدير الورد بعد هولندا، فإن هذا يرجع لفضل الإسرائيليين الذين أدخلوا الطرق الحديثة للري بالتنقيط والآليات

المتطورة لزراعة الورد، وأيضًا لا أحد يستطيع أن ينكر دورهم في الطفرة الكبيرة التي حدثت للخطوط الجوية الكينية بعد أن دخلت شريكًا وتم التحديث والتطوير إلى أن أصبحت شركة تنافس خطوط الطيران العالمية.

ألقى الرجل بقنابله في وجهنا ليهب واقفًا إشارة منه بأن وقتنا انتهى في الحوار معه، طلبت منه دقائق لأتعرف على الدور المصري في كينيا من وجهة نظره كرجل اقتصاد؟

بسرعة وحسم وبلا تردد: ليس ملحوظًا، ولا أبالغ عندما أقول إن مصر أثناء الفترة الماضية منذ أيام مبارك وما تلاه من أحداث جسام مرت بها البلاد، قد اضمحل دورها تمامًا ليس في كينيا فحسب بل في كل إفريقيا. وأنا رجل أعمال وأعرف ما أقوله جيدًا، وبحكم ما أرى أن رجال الأعمال المصريين، إلا قلة قليلة منهم، فضلوا استثمار أموالهم في القارات الأخرى مثل أوروبا وأمريكا، وهناك أيضًا رؤوس أموال مصرية كثيرة تستثمر في إسرائيل نفسها، رغم علمي بالتاريخ الذي يربط بينكم وبينهم ولكن ما أقصده أن مصر لم تختر إفريقيا لتحتل في أسواقها نصيبًا من الاستثمارات، وهذا ما كنت أنا شخصيًّا لا أتمناه؛ لأن مصر لها تاريخ مشرف ورصيد لا يمكن أن تنساه كل الشعوب الإفريقية التي وقفت مصر بجانبها أيام الاستعمار، والفضل بالطبع يرجع لسياسة زعيم إفريقيا الذي لا ينسى جمال عبد الناصر.

الفصل العاشر

بين عجائب المزايمارا

ألم يحن الوقت لكي نغتسل من كل هذا الكم من الهموم والضغوط التي أثقلتنا بها رحلتنا إلى دول المنابع؟ ألم يحن الوقت الذي نلتقط فيه أنفاسنا، ونُصفي فيه آذاننا من عبارة التواجد الإسرائيلي؟

إذًا فلتكن «المازايمارا» حدائق كينيا وغاباتها المفتوحة، رحلة نفرغ فيها أحمالنا على أعتاب الخمسة العظام الذين يحكمون الغابة بقانون واضح وصريح ومرضٍ لجميع الأطراف.

إذًا هي رحلة السفاري التي نخطو فيها بخطواتنا مهرولين إلى عالم المجهول.

تجربة مثيرة وطويلة ومشوقة، أمامها يعجز القلم عن الوصف والتعبير، رحلة بدأت خطواتها الأولى من العاصمة الكينية «نيروبي» عندما كان علينا الاتفاق مع شركة سياحية تنظم لنا جولتنا في «المزايمارا».

ظننا الأمر في البداية يسيرًا، وسرعان ما خاب ظننا وبدت مهمة البحث عن شركة تنظم لنا قضاء أسبوع في قلب الغابات أمرًا في منتهى الصعوبة، وكلمة السر مع الأسف «إسرائيل».

حالة من الحصار فرضته علينا شركات السياحة التي خاطبناها إما عبر الهاتف أو عن طريق الفندق وحتى الذهاب إليها بأنفسنا،

إذ كان المسؤولون عن تلك الشركات من ملاك وعاملين ومرافقين من اليهود، وبدا وجود العلم الإسرائيلي أمرًا عاديًّا ومتعارفًا عليه، تصطدم به عيناك إما معلقًا على واجهات الشركات جنبًا إلى جنب العلم الكيني، أو على مكاتب الموظفين بين أحضان صديقه الكيني الصدوق.

كدنا أن نقوم بهدم حلمنا والتخلي عن الفكرة رافعين شعار «بناقصه»، حتى أرسل الله لنا في اللحظات الأخيرة توفيقًا من عنده سبحانه وتعالى فوجدنا شركة سياحية إنجليزية لا علاقة لها بـ«اللي ما يتسموا»، لتبدأ رحلتنا في الانطلاق في صباح اليوم التالي إلى «المزايمارا».

لم أفهم معنى السفاري إلا بعد أن سمعت من منظمة الرحلة بالشركة الإنجليزية قائمة من المستلزمات التي يجب أن نجلبها معنا في السيارة رباعية الدفع: «جراكن» مياه معدنية، ورق تواليت، وبعض العصائر. وكان لسان حالي وزميلي المصور الفنان «حسام دياب»؛ «إحنا رايحيين رحلة سفاري، ربنا يستر ونرجع».

الطريق طويل إلى «حدائق المزايمارا» المفتوحة، موطن الحيوانات الخمسة العظام، بدأت السيارة تخرج بنا من المناطق الثرية والنظيفة في نيروبي، لتشق طريقها عبر الأحياء العشوائية وأكواخ الصفيح ومنها إلى الطرق الوعرة غير المرصوفة، الطرق تضيق «والمطبات والزلط» المترامي على الطريق يكاد «يقسم

الظهر».

تسع ساعات متواصلة من السير في درجة حرارة تصل إلى 42 درجة مئوية وأمطار غزيرة لا تكاد ترى أصابعك منها!

كم لا يوصف من الخضرة والجمال لا أستطيع التعبير عنه، أدهشني ما رأيته أثناء السير بالسيارة، التي قد تقف فجأة ليعبر بخطاه المتثاقلة هو وأسرته بعد حمام دافئ تحت المطر، إنه الفيل الإفريقي المتوحش لا تستطيع أن تقترب منه أو تقف بجانبه على بعد مترين أو ثلاثة فقد يهاجمك دون أن تشعر.

وها هو غزال شارد صغير يبحث عن عائلته التي ضل طريقه إليها ينظر إليك برعب مذعور، هذا الشارد ينتظر مصيره الحتمي بين فكي أسد أو بين مخالب فهد يختبئ له بين أغصان شجرة.

وصلنا متعبين إلى مكان المعسكر هكذا يطلقون عليه، ليس فندقًا ولكنه عبارة عن مجموعة خيام، الخيمة متر في متر، تذكرني بتلك التي حبست فيها ثلاثة أيام متواصلة في معسكرات الإرهابيين أتباع أسامة بن لادن أثناء رحلتي إلى الهند.

المفاجأة أن هذا المعسكر وسط الغابة، وتحديدًا وسط الحيوانات المتوحشة والمستأنسة والبرية، «عادي جدًّا» لم أستطع أن أمنع نفسي من الخوف الذي دفعني إلى السؤال: «إحنا هانقعد هنا إزاي وسط الغابة طب إزاي؟ ممكن يهجم علينا أسد ولا حمار وحشي ولا قرد البابون المتوحش الذي لا يرحم»، وكان الرد على

مخاوفي من مرافقنا، «إنه لا داعي للقلق أو الخوف» لأن هناك شخصًا يقف دائمًا ليحمي المعسكر!

لحظة الخوف أشعرتني أنني في قمة المتعة، إنه الحنين إلى المجهول، الجنون الذي ينتابني فيقودني لخوض المغامرة، ما أحلى الجنون وما أجمل المجهول.

***

الليلة الأولى في الخيمة مرعبة إلى حد كبير، فما إن أسدل الليل ستائره، ومع مرور دقائق معدودة، فوجئت بشيء ما يتحرك فوق الخيمة، لا يتحرك؛ إنه «يفط وينط». اعتدلت مسرعة ووجهت عيني صوب سقف الخيمة لأجدها تتحرك هي الأخرى، خرجت مسرعة إلى زميلي المصور «حسام دياب» لأسأله: «ما هذه الأصوات؟ هناك حركة غريبة فوق الخيمة». فجاءني رده «أكيد حيوانات». كان أول اسم خطر على رأسي هو «أسد»، بالطبع لا يمكن أن يصعد الأسد إلى سقف الخيمة، ولكنه الهلع الذي أصابني جعلني أتوقف عن أي تفكير منطقي، وكان السؤال أسرع من أن أفكر فيه من شدة الخوف، فجاءني صوت الفنان حسام دياب: «ماتخافيش قالوا فيه واحد حامينا بسلاح».

دخلت إلى خيمتي، ووضعت الغطاء فوق رأسي واستسلمت للنوم على أنغام أصوات الحيوانات المفترسة التي باتت تعلو

وتزمجر، ويبدو أنها كانت في حالة من حالات الصيد لفرائسها التي باتت خطواتها تدب رعبًا مع نبضات قلبي.

***

إفطار بدائي لطيف، مع نسمات الصباح البكر. دقائق وكنا في السيارة المخصصة لخوض رحلة السفاري وسط الأدغال، انطلقت السيارة وسط الغابات والأشجار لا أعرف لماذا كانت على لساني عبارة «بلاد تشيلنا وتحطنا».

وكانت المفاجأة عند الملك الذي دائمًا ما يحمل الأسرار، الكينج وزوجته اللبؤة، وسط حشائش السافانا الخضراء.

هي مستلقية تمارس كل فنون الدلع، تتقلب يمينا وشمالًا، تقرر أن تتحرك من مكانها، فلا يملك إلا أن يتابع خطواتها الممشوقة بكل حب، عيناه تكاد أن تنطق قائلة: «يا أرض اتهدي ما عليكي أدي»!

ضبطنا الأسد واللبؤة في لحظة غرام، تابعت المشهد وتعجبت أن فنون الحب والعشق عرفت طريقها ووجدت لها مكانًا وسط كل ما هو متوحش وعنيف، «كيوبيد» وحده قادر على ترويض الأسود.

مشاهدة عالم الحيوان عن قرب تختلف تمامًا عن أي برامج قد

تشاهدها في قنوات التلفزيون، ويختلف أيضًا عن اصطحابك لأطفالك في زيارة خاطفة لحديقة الحيوانات، المسألة مختلفة تمامًا في غابات كينيا رأيت عجب العجاب.

ذلك الحيوان الرياضي الممشوق القوام، نظرة في عينيه عن قرب تثير لديك إعجابًا قبل أن يكون خوفًا، اللون الأسود مع البني يعطي الفهد حتمًا جمالًا لا مثيل له.

أسرع من الأسد. هو الوحيد الذي يلحق بالغزال الطيب، يكاد يلتهم لحمه الجميل، فيأتي الملك بقوته وجبروته، أمامه لا يملك الفهد سوى التنازل والانسحاب والعودة إلى الوراء.

أمام الملك تنكس الرؤوس ويتنازل صاحب الحق عن حقه قانون يحترمه الجميع، الكل في الغابة يعرف قدره وحجمه ومسؤولياته «البقاء للأقوى»، تلك هي اللغة التي يتحدث بها أهل الغابة، لغة يعرفونها جيدًا ويعرفون كيف يتعاملون بها.

لا أعرف لماذا في ظل لغة القوة والعنف التي تحكم الغابة وجدت متنفسًا للحب والاحترام، ليس في يدي دليل ولكن مجرد شعور اجتاحني أثناء وجودي في الغابة.

ولا أعرف لماذا شعرت أننا نعيش أيضًا في غابة ولكن من البشر وللحق تختلف عن غابة الحيوانات، على الأقل لدى الحيوانات قانون أو عرف تحترمه، لو كان هذا القانون هو البقاء للأقوى، ولكن أين القانون الذي يحكم الغابة التي نعيش فيها؟ حتى لم

نستطع أن يكون قانوننا هو «البقاء للأقوى». لم نستطع أن نعلنها صراحة مثلما أعلنتها بشجاعة حيوانات الغابة منذ قديم الأزل.

هذا ما كان يدور في ذهني أثناء الجولة التي قمت بها وسط حيوانات غابات كينيا، لم أفق إلا وأنا في طريق العودة، كنت على عجل وصديقي المصور الفنان حسام دياب الذي أخمد نيران كاميرته بعد جولة مرهقة في غابات كينيا.

***

هنا أعلن «طمي» كينيا فرمانه بوقف مسلسل الشوق والأحلام للقليل من الراحة، ليلقينا في «فيلم رعب» بصناعة إفريقية بدائية محكمة، لقد غرزت سيارتنا في الطمي الذي يزداد بفعل الأمطار الغزيرة في الغابة.

قطع الحادث حبل أفكاري وعزلني عن العالم، وأصبح ذهني شاردًا إلا من فكرة واحدة؛ «الملك، الفهد، اللبؤة». لم نبتعد عنهم أكثر من 150 مترًا فقط، بل إنني أراهم بعيني المجردتين، أسمع زئيرهم وأترجمه على أنه احتفال بوجبة مجانية مصرية 100%!

أين حارس الغابة؟ أين السلاح؟ أين السفار ة المصرية؟ ألف أين وأين طاح بها لساني في أركان الغابة، ولكنها لم تهدئ من روعي لأنني لم أجد لها إجابة، وكذا كانت حال صديقي الفنان

«حسام دياب» الذي ما لبث أن ارتدى عباءة الفن والكادر، وغاص في الكاميرا ليصطاد عددًا من الأسود والفهود بكاميرته في هذا الموقف، فما كان مني إلا أن سلمت أمري إلى الله وبدأت أنطق الشهادتين، ولم يكن لحديث مرافقنا المهدئ أي تأثير على نبضات قلبي المسرعة وضغطي المرتفع، إلى أن ظهرت بعض السيارات رباعية الدفع التابعة لبعض الكينيين من حاملي أختام أسرار الغابة الكينية، وبعد دقائق كنا قد خرجنا من الفخ الذي نصبته لنا الطبيعة بجانب الأسود والفهود لأقول للسائق «على بلد المحبوب وديني»!

***

إنه هذا الخليط الأسود المعجون بالأساطير والشعائر المقدسة وتقاليد إنسان الغاب، ينبوع بكارة الخضرة والماء والوجوه السوداء، أجساد منحوتة بيد إفريقيا السمراء في قلب الأحراش والأدغال، أذنها المبتورة رمز الجمال، الماشية والماعز والأبقار هي بورصة المال وطبيعة الأعمال، نساء ورجال أغنياء بالثروة الحيوانية لأنهم «ملهمش شغلة ولا مشغلة غيرها» وزراعة الأشجار.

يعبدون شجرة التين «وماله»!

يقطعون أذنهم «ممكن»!

لكن كله «كوم»، وإفطار الماساي المعجون بالدماء «كوم». هنا من قلب إفريقيا «الدم» هو وجبة الأثرياء وغذاء الأطفال بدلًا من الحليب. الدماء هنا هي «هدية» الحبيب للحبيب، جولة أصحبكم فيها على مائدة «دموية بالكلمة والصورة في وليمة «الماساي».

بداية هنا في شمال كينيا، حيث قبائل الماساي والتسمبورو، لا شيء يعلو فوق صوت الشجرة المقدسة ونعيق الأبقار والماعز، فهما الشغل الشاغل لأبناء القبيلة، الرعي وزراعة الأشجار هما عمل الجميع منذ الصباح الباكر وحتى نهاية اليوم، لدرجة تنمو معها ثروتهم الحيوانية بصورة كبيرة جدًّا لتصل إلى حد الغنى الفاحش، يعيشون في أكواخ صنعتها أيديهم من الورق وخشب الأشجار وروث الأبقار، ضيقة ومداخلها صغيرة لا تتناسب مع الطول الفارع الذي يميز أفراد هذه القبيلة الإفريقية الشهيرة، نظرة سريعة عندما دخلتها لدقائق فرائحتها عن حق لا تطاق، استطعت أن ألمح فيها ذلك الفرش المصنوع من جلود الأبقار، ومقسم بين غرفة النوم وزريبة الدواب.

تأملت وجوههم الطيبة ذات الأذن المقطوعة والمزركشة، لألاحظ بعضًا من أفرادهم وقد وضع خوذة على رأسه، مرافقي قال إنها علامة منازلة خاضها وتمكنه من قتل أسد هاجم مكان إقامة أهله. وآخرون تجد عليهم آثار ندوب وجراح من جراء المواجهات شبه اليومية مع الكواسر والضواري. يعتمد رجال الماساي على النساء في إعداد الطعام وجلب الحطب، وما زالوا يشعلون النار

عن طريق حك غصنين جافين وإشعال قش ونفخه ولا يعرفون طريقة الإشعال بالكبريت.

تحدثت مع كبير القبيلة عن طريق مرافقي الذي كان يجيد اللغة أو اللهجة التي يتكلمون بها، سألته عن قوانين الزواج فأجاب: «في سن الثلاثين يسمح للشاب بدخول حياة اجتماعية، يحلق له كاهن العشيرة رأسه ويمنحه حرية الزواج بأكثر عدد يمكنه من الزوجات. حينئذ ينظر إليه الآخرون باعتبار، ويبدأ مرحلة جدية من حياة تتسم بالاحترام، وإذا أدى للقبيلة خدمة ممتازة، فاز بشرف منحه زوجًا من الأقراط يقلدها له الزعيم في أذنيه، فتظل مصدرًا لفخره ومدعاة لاحترامه بقية حياته، أينما ذهب».

عندما تتجول بعينيك ما بين نسائهم، من المستحيل أن تجد في الماساي امرأة ناضجة عزباء لم تتزوج، ولا غرابة في ذلك، فقد يبلغ حظ الرجل الواحد من الزوجات أكثر من عشر نساء، وقاعدة تعدد الزوجات في تقاليدهم تتماشى مع طبيعة حياتهم. فالنساء أكثر من الرجال دائمًا نظرًا لما يتعرض له الرجال من أخطار في حياتهم العادية، أو حينما تنشب المعارك بينهم .

ويسكن كل رب أسرة في ساحة مسورة لها بوابة رئيسة، لكل زوجة من الزوجات مسكن تبنيه في صفين من المساكن على يمين ويسار البوابة، تبعًا لأقدميتها في الترتيب بين الزوجات الأخريات.

***

لأن العادة تجري بأن يكون لمثل هذه القبائل التي تسكن الغابة عادات وطقوس غريبة مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بطبيعة العمل والأرض والثروة والاعتقاد الديني، كان بديل اللبن في الصباح هو «كوب دماء» على طريقة دراكولا!

عندما وجهت لنا دعوة الإفطار من قبل كبير الماساي لم نتردد، ذهبنا مع أول بزوغ لخيوط الشمس، إذ بدأ بتجمع أطفال القبيلة لتخرج زوجة شيخ القبيلة من كوخها، إنها الوجبة المقدسة التي تعطيهم القوة في العمل والجنس والإنجاب وتقوي أجساد أطفالهم وتباركهم، إنها وجبة دماء الأبقار.

وقبل أن أسأل مرافقي عن «مقادير» الطبخة وطريقة الإعداد، كانت تجهيزات الوليمة قد بدأت بالفعل، عدد منهم يقوم بتحضير «السهم» الذي سيطلق في رقبة البقرة، سهم خشبي برأس معدني يقومون بسنّه ليصبح في غاية الحدة من كل جوانبه المعدنية حتى يستطيع اختراق رقبة البقرة.

سألت مرافقي: «إذًا تذبحون بقرة كل يوم أثناء وجبة الإفطار من أجل وجبة الدماء؟» فأجابني قائلًا: «بالطبع لا، نحن لا نقتل البقرة بالسهم بل نصيبها فقط لنحصل على الدماء، ولكي نقوم بذلك يجب أن نطلق السهم بجانب عرق الموت في رقبة البقرة

تمامًا، ولهذا نختار فردًا «نشنجي» ماهرًا في استخدام القوس والسهم لأنه لو انحرف ملليمترات قليلة سيؤدي لموت البقرة.

ثوانٍ وكان كل شيء جاهزًا؛ السهم والـ«نشنجي» والمرأة التي أمسكت بيدها زجاجة لتعبئة الدماء، وبالفعل لم يخطئ الرجل هدفه وبدأت نافورة الدم في ريّ عطش «الماساي»، حيث وضعت المرأة القارورة تحت نافورة الدم التي تسيل من رقبة البقرة حتى امتلأت.

افتتحت هي تذوق الدم وشربته من الزجاجة، ثم مرت على بقية أهالي القبيلة وخاصة الأطفال منهم ليرووا عطشهم ويقووا أنفسهم ضد الحيوانات المتوحشة وفي عملية الإنجاب والجنس.

لم تفارقني صورة الطفلة الصغيرة التي بدأت تتجرع رشفات كبيرة متتالية من الدماء مباشرة من الزجاجة بشراهة شديدة، لدرجة أنها لطخت وجهها كله بالدماء من كثرة الظمأ لطعم الدماء.

انتهت الوليمة وانتهت رحلتنا مع الوجوه المنحوتة السوداء والآذان المبتورة من شمال كينيا، حيث قبائل الماساي، مقدسو «الشجر» وشاربو «دماء البقر».

***

ماتعاندنيش يا شمس وتغيبي أنا مش أنا، والصبر مش هو.

مخنوق ما بين الصورة والغنوة، ضاعت سنين وسنين

الغصن كان غصنين، والحلم كان قلبين

على الفجر متعاهدين، على الصبر متقاسمين

ما تكذبيش يا شمس وتغيبي.

أمام طائر الفلامنكو الشهير بريشاته الملونة التي راحت ترفرف وتحط على صفحات مياة بحيرة ناكورو، في طريق العودة من «مازيمارا» إلى «نيروبي»، لم أملك سوى أن أردد كلمات الشاعر الراحل أحمد إسماعيل التي تغنى بها علي الحجار.

وعندما أطللت إطلالة الوداع على طائر الفلامنكو، وجدتني أناجيه لأسأله: يا هل ترى بعد السفر هتغني فوق سطح البيوت، تسكن عيون الليل قمر وألقاك على الشباك تفوت، ولا هينده لك رحيل يفصل ما بينا ألف ميل؟

وما إن ارتميت بجسدي على مقعد الطائرة المتجهة إلى «الكونغو»، إلا ووجدتني أتساءل: «يا بكرة فين أنت هتفوت هنا إمتى، هتجيب معاك حلمي ولا تزيد ظلمي؟».

الفصل الحادي عشر

إلى الكونغو

سخونة شمس الكونغو سرعان ما تلفح وجه زائرها، ما إن يخطو بقدميه خارج مطار «كينشاسا». وجنون أسعارها يصيبك حتمًا بالدهشة بعد أن كنت ظننت أنك في زمن فقدت فيه قدرتك على التعجب والاستغراب. حالة الفوضى والحروب وكم الرصاص ونزيف الدماء الذي اندثر على أرضها في معارك أهلية استنفدت كل طاقاتها ومواردها، وتتوحش حالات الاغتصاب الجنسي لفتياتها السمراوات، اللاتي نجحن بجدارة في أن تحصل دولتهن على لقب «عاصمة الاغتصاب» في العالم.

أحشاؤها تغلي وتثور غاضبة متفجرة بكل ما هو نفيس ونادر ونقي وخالص ولامع وكريم.

هي جهنم «المعادن» بدءًا بالذهب والألماس مرورًا بالتانتيوم والكولتان والكتريت وحتى النحاس واليورانيوم والملاكيت.

هي شعوب البانتو وقبائل التوتسي. هي بلد لومومبا وتشومبي وموبوتو وكابيلا الأب وأخيرًا الابن. هي زائير سابقًا والكونغو الديمقراطية حاليًا.

الطريق إلى الكونغو لم يكن بالنسبة إلينا سهلًا على الإطلاق.

عطل فني صغير في طائرة الخطوط الجوية الكينية التي لم تقلع من مطار القاهرة إلا بعد ميعادها بأربع ساعات، كان كفيلًا

بأن يجعلنا نفقد طائرتنا التي ستقلع من مطار «جوموكينياتا» بالعاصمة الكينية «نيروبي» والمتجهة إلى مطار العاصمة الكونغولية «كينشاسا».

كانت المفاجأة التي نزلت على رؤوسنا كالصاعقة، هي ما قالته لنا الموظفة الكينية بمطار «نيروبي» بأن موعد الطائرة المقبلة التي ستطير بنا إلى كينشاسا هو مساء اليوم التالي. ولم تطل فترة صدمتنا خاصة عندما علمنا بأن الخطوط الجوية الكينية سوف توفر لنا فندقًا في قلب العاصمة نيروبي، بل وستجعلنا نحصل على تأشيرة دخولها بعد أن كنا قد حصلنا على ختم الخروج منها من مطار «جوموكينياتا».

«كل تأخيرة فيها خيرة، وإن علمتم الغيب لاخترتم الواقع»، هكذا حدثنا أنفسنا طوال الطريق إلى الفندق في قلب نيروبي.

فقط استسلمنا بأجسادنا المنهكة إلى نوم عميق انتظارًا ليوم جديد نطير عبر ساعاته إلى المنشودة؛ «الكونغو الديمقراطية».

4 ساعات من مطار «نيروبي» إلى مطار «كينشاسا»، وقت كفيل بأن يجعلني أتأمل تاريخ هذا البلد الذي دنوت من الوصول إليه.

تاريخ مليء بالأحداث والشخصيات والانقلابات والثورات والمفاوضات والحروب الأهلية التي أودت بها إلى الهاوية سنوات طويلة.

بلد حكايته حكاية بدأت من عند الملاح البرتغالي «ديجو»، الذي كان أول أوروبي يلتقي بملك الكونغو «أنطونيو» عام 1487، لتقوم بعد ذلك علاقات وثيقة بين الكونغو والبرتغال، بعدها أدرك ملك الكونغو أن الوجود البرتغالي يشكل خطرًا على بلاده، خاصة بعد انتشار تجارة العبيد في إفريقيا وفرض مد امتياز استثمار المناجم البرتغالي.

من هنا بدأت مرحلة أخرى في تاريخ هذا البلد مع «شتانلي» الإنجليزي، الذي أدرك ثروات الكونغو وحاول أن يدفع الحكومة البريطانية لاستغلال هذه الثروات ولم يفلح، فلجأ إلى بلجيكا التي تمكن ملكها «ليوبود» من الحصول على اعتراف من زعماء أوروبا بحقه الشخصي في ملكية الكونغو عام 1885، ليستمر20 عامًا في استغلال هذا البلد واستنزاف موارده لصالح بلجيكا.

ومع الاحتلال ظهرت الحركات الكنغولية المطالبة بالاستقلال، وظهرت العديد من المنظمات أشهرها منظمة «أباكو»، والتي كان من أبرز قياداتها «لومومبا» الذي ألقي القبض عليه وسجن عام 1959، وسرعان ما اندلعت الاضطرابات في كل أنحاء الكونغو، إلى أن عقدت انتخابات وتأسست جبهة الاتحاد الوطني ليصبح «كازافوبو» رئيسًا للبلاد، وباترس لومومبا رئيسًا لحكومتها، في الوقت نفسه الذي يستقل فيه تشومبي بإقليم «كاتنجا» عن بلجيكا، لتزيد القوات الدولية وتزيد معها أعداد المرتزقة وتسوء العلاقات بين لومومبا وكازافوبو، ويقوم رئيس الأركان «سسي

سيكو» بانقلاب يسيطر فيه على البلاد، ويعتقل لومومبا ويقتل في عام 1961، لتدخل الكونغو مرحلة جديدة من الفوضى تدوم لخمس سنوات، تدهورت فيها الأوضاع الاقتصادية وفرضت حالة الطوارئ ونزل الجيش للشارع لقمع الناس، إلى أن تدخل موبوتو قائد الجيش وحل البرلمان وألغى الأحزاب وأسس الحركة الشعبية للثورة عام 1967، وبنى للومومبا تمثالًا في كينشاسا وأطلق عليه لقب شهيد الاستقلال الأول، وغير اسم زائير إلى الكونغو.

وواجه الرجل ثورات وانقلابات كان آخرها عام 1996 التي تزعمها كابيلا، وتمكن فيها من السيطرة على البلاد لتثور الانقلابات ضده ويطلق أحد رجاله الرصاص عليه عام 2001.

ولم تهدأ الثورات والحركات الانفصالية والحروب الأهلية، خاصة في شرق الكونغو التي يعاني منها الرئيس الحالي كابيلا الابن الذي يعد أصغر رئيس جمهورية فهو من مواليد 1970.

صوت كابتن الطائرة معلنًا وصولنا لمطار كينشاسا كان كفيلًا بأن يجعلني أفيق من استرجاع تاريخ هذا البلد.

مطار صغير فقير لا يرقى إلى أن يكون محطة أتوبيس درجة ثالثة، وليس مطار عاصمة دولة كبيرة مثل الكونغو.

هذا هو أول انطباع ارتسم في أذهاننا ما إن دخلنا كينشاسا.

إيهاب عبده الملحق الإداري وقتها بالسفارة المصرية، كان أول

من استقبلنا بل وأنهى لنا إجراءات دخولنا إلى الكونغو بسرعة لا مثيل لها، خاصة أننا بالتأكيد كنا سنفشل في التفاهم مع الكونغوليين لأنهم لا يتكلمون سوى اللغة الفرنسية التي بالطبع لا نجيدها.

لفحة شمس كينشاسا من الصعب أن تنساها، فهي تمنحك درجة من درجات السخونة والغليان خاصة عندما تعرف أن درجة الحرارة تصل إلى 50 درجة مئوية.

رائحة غريبة تغزو صدري لتتغلغل في رئتي دون أي استئذان، إنها رائحة الكحول أو «السبرتو» أو بالأولى رائحة البيرة الكونغولي التي يشربها الجميع بلا استثناء، بل يقال إنهم لا يشربون المياه وأن البيرة هي البديل؛ المشروب الرسمي والأساسي.

نظرة سريعة من شباك السيارة تستطيع من خلالها أن تتعرف على ملامح هذه الدولة.

وجوه فقيرة، وأجساد نهشها الحرمان، وأكواخ يطلقون عليها منازل وما هي إلا غرف أو زنازين تحبس فيها أرواح.

لا تستطيع سوى أن تضبط نفسك متلبسًا وأنت تبتسم قائلًا: بأن سكان قبور مصر القديمة وعشوائيات منشية ناصر والدويقة التي انهارت صخورها فوقهم، ما هي إلا فنادق خمسة نجوم إذا ما قارنتها بتلك الأكواخ التي أراها بعيني، والتي لا تصلح حتى كحظيرة للحيوانات.

أما الطريق من المطار إلى الفندق الذي حجزت لنا فيه السفارة المصرية فيصعب على القلم وصفه، بل لا أبالغ عندما أقول بأنه ذكرني برحلتي إلى أفغانستان وتحديدًا الطريق من مدينة جلال آباد إلى كابول، كان طريقًا مهشمًا مهلهلًا لا توجد فيه منطقة صالحة للسير، وإنما يدل على ضعف إمكانيات وحرمان وفقر واحتياج شديد لمد يد العون والمساعدة، وبالطبع مع الزحام الشديد الذي يغلب بجدارة زحام القاهرة لا تفكر في وجود أي مرور، فالعشوائية والفوضى والإزعاج والتراب والكحول وأبواق السيارات التي تتداخل أصواتها تصيبك حتمًا بالصمم من كثرة إزعاجها، لتجعلك تكاد تفقد أعصابك ولسان حالك يقول: «على بلدي المحبوب وديني».

عندما بدأت السيارة تأخذ منحنى آخر استرخت فقرات عظام ظهورنا من «رجرجة» الطريق، فأدركنا أننا كنا في أطراف العاصمة الكونغولية وحان الوقت لندخل إلى قلب المدينة.

كلام الملحق الإداري بالسفارة المصرية في كينشاسا، صحح لنا معلوماتنا عندما قال دخلنا الآن منطقة «بومبي»، وهي أفضل المناطق في العاصمة لأنها ببساطة تضم السفارات والفنادق أما بقية الطرق في البلد فهي كمثيلاتها التي مشينا فيها طوال طريق المطار.

في الفندق كانت المفاجأة ثقيلة عندما صدمنا عامل الريسبشن قائلًا إن الغرفة بـ250 دولارًا، ومن أجل السفارة المصرية

سيعطيها لنا بـ200 دولار.

الأزمة لم تكن في سعر الغرفة الواحدة، بل في أن الفندق لا يتعدى نجمة واحدة، بل يشبه إلى حد كبير «بانسيونات» وسط القاهرة التي ربما يدفع فيها مرتادوها 15 جنيهًا للغرفة.

ولكن ـوالكلام علي لسان «إيهاب»ـ هنا أكثر المناطق أمنًا في العاصمة حتى إن منزل الرئيس كابيلا في نفس الشارع!

لم نفكر كثيرًا، وبلا تردد ألقينا بحقائبنا في الغرف وانطلقنا إلى قلب العاصمة كينشاسا لنرى ماذا تخفي لنا؟!

طلبنا من الملحق الإداري بالسفارة أن نأخذ جولة سريعة في أرجاء العاصمة الكونغولية، إلى أن يحين موعدنا بزيارة سفير مصر في كينشاسا وقتها محمد عز الدين فودة وبقية أعضاء السفارة، رحب الرجل بل واقترح علينا أيضًا أن ندخل أحد السوبر ماركات لنشتري بعضًا من لوازم العصائر والجبن «لزوم العيشة يعني».

أول شيء يلفت نظرك ما إن تجوب سيارتك أرض كينشاسا، هو هذا الكم الذي لا يوصف من تلك الأجساد السمراء والوجوه المكفهرة التي عبست وكشرت عن أنيابها، والواقفة في الشوارع والجالسة على الأرصفة لا تفعل شيئًا سوى الصمت.

ويبدو أن مرافقنا إيهاب قد شعر بتساؤلاتنا، فأجاب على الفور

بأن كل الموظفين في الهيئات والوزارات الحكومية في حالة إضراب عن العمل منذ ثلاثة أيام؛ لأنهم يعانون معاناة شديدة من قلة رواتبهم التي لا تتجاوز 100 دولار شهريًّا، ولقد وعدتهم الحكومة بزيادة رواتبهم لكن للأسف زادت فقط لمديري مكاتب الوزارات أما هم فالحال كما هي عليه.

طلبت من الملحق الإداري أن نذهب على الفور لزيارة أي سوبر ماركت لأرصد حالة الأسعار في بلد مثل الكونغو.

«حسونة ماركت»، هذا هو اسم السوبر ماركت الكبير الذي يعد من أهم المحلات في العاصمة كينشاسا، لفت نظري الاسم خاصة عندما أوحى إلي بأن هذا الحسونة عربي الأصل، وعندما سألت مرافقنا أجابني بهدوء، «حسونة اليهودي». لم أتعجب ولم أندهش فما رأيته في دول إفريقيا التي قمت بزيارتها، وخاصة دول حوض النيل من توغل وانتشار اليهود والإسرائيليين، جعلني أفقد دهشتي أمام وصول اليهود إلى دولة الكونغو الديمقراطية وهي الغنية بالثروات والمعادن والبحيرات الطبيعية.

والحق لم أسبق الأحداث ولم أجهد نفسي كثيرًا في الحصول على معلومات أكثر تفصيلًا عن النشاط الإسرائيلي في الكونغو، فقد كنت على يقين بأنني سأصل إلى الحقيقة ولكن ليس في أول ساعات من الرحلة، لم أكن في حاجة أبدًا «لسدة النفس».

لحظات وكنا في قلب «حسونة». حدث ولا حرج؛ كل شيء

تتخيله أو لا تتصوره موجود في السوبر ماركت، كما يقولون من الإبرة إلى الصاروخ.

المفاجأة كانت في الأسعار، ما كل تلك النيران الملتهبة التي تمتد ألسنتها إلى وجهك لتلفحه لفحة أكثر سوادًا وسخونة من لفحة حرارة الجو التي وصلت إلى خمسين درجة مئوية.

كيلو اللحمة بخمسة وعشرين دولارًا، كيلو الجبنة البيضاء العادية بستين دولارًا، بقية أنواع الجبن التي نعرفها تختلف أسعارها ولكنها تبدأ بخمسة وسبعين دولارًا إلى أن تصل إلى مئتين وخمسين دولارًا.

علبة العصير بعشرين دولارًا، قطعة البيتزا الصغيرة التي تحصل عليها من الفرن البلدي في مصر بعشرين دولارًا.

عدد 5 خيارات بـ17 دولارًا، وعدد 5 حبات طماطم بعشرين دولارًا، ورك الديك الرومي بعشرين دولارًا.

إنه عالم مجنون مجنون، هكذا وجدت صوتي يعلو ليسمعني مرافقنا قائلًا لم أر في حياتي أسعارًا بهذا الشكل، الجميع هنا يعاني.

الأجور قليلة والأسعار مجنونة كل ما ترينه من بضائع مستورد، الكونغو لا تنتج شيئًا فهي بلد غير قادر، رغم وجود الإمكانات والموارد لكنهم لا يملكون القدرة على استغلالها، هم بالفعل في

حاجة لمد يد العون والمساعدة من جميع الدول وعلى رأسها مصر.

عندما قال لنا مرافقنا إنها فرصة جيدة لشراء بعض المستلزمات من الطعام، خاصة أن «حسونة» لديه عروض مغرية في الأسعار غير أي سوبر ماركت آخر، أجبناه بلا تردد «لن نشتري من حسونة اليهودي لأننا ببساطة لا نتعامل معهم ولن ندفع لهم من جيوبنا دولارًا واحدًا، علينا الذهاب إلى مكان آخر».

«سيتي» اللبناني هو أهم سوبر ماركت بعد حسونة، واللبنانيون هنا يمثلون قوة اقتصادية هائلة.

«الشوام شطار» هكذا كنت أحدث نفسي، يعرفون كيف يستغلون أموالهم، ولديهم القدرة على الصبر والجدية في التعامل بل والتأقلم مع أي ظروف حتى ولو كانت شديدة الوعورة، لكنهم يعلمون جيدًا أنهم سيربحون في النهاية.

وهذا ما يفسر انتشارهم في القارة الإفريقية ونجاحهم في دولة ما زالت تحبو مثل الكونغو، وهذا أيضًا ما يفسر نجاح مطاعمهم اللبنانية في كل الدول عامة وفي العاصمة كينشاسا خاصة.

الفصل الثاني عشر

بيرة وفقر

1

كان الوقت قد حان لمقابلة أعضاء السفارة المصرية، فانطلقنا على الفور لنكون أمامهم في الموعد المحدد.

أي شيء آخر غير أن يكون مبنى السفارة المصرية في عاصمة دولة إفريقية كبيرة مثل الكونغو. هذا هو أول انطباع تسرب إلي عندما فتحت البوابة الأمنية للسفارة أبوابها أمامنا، مبنى قديم ذابت جدرانه وتهشمت، وجراج فقير، وشبابيك مهشمة، وعلم مصر الذي يرفرف عاليًا قد انطفأت ألوانه وبات يشتكي من قطع في أطرافه، أما داخل السفارة فحدث ولا حرج، كراتين ملقاة لا تعرف ماذا تحوي بالضبط، يقولون عنها إنها للتطوير ولا حياة لمن تنادي فلا إمكانات للتنفيذ!

أخرجني من حالتي استقبال أعضاء السفارة وهم قليلون، معدودون على الأصابع، السفير وهو الرجل الدبلوماسي الوحيد الموجود في السفارة والمستشار الإعلامي طارق عبد العظيم، ومساعده حسين أنس وإيهاب وعبد الرازق، هذا هو التمثيل المصري في ذلك الوقت بدولة الكونغو التي تربطنا بها علاقات تاريخية بدأت منذ أيام عبد الناصر ولومومبا، وامتدت حتى الآن في موقفها بجانبنا وعدم التوقيع على اتفاقية عنتيبي الإطارية التي تهدد مصالح مصر المائية، واشتراطها توقيع وتوافق جميع دول حوض النيل عليها.

2

ساعاته ثقيلة وطويلة تمضي وكأنها سنوات محسوبة بالتأكيد من عمرك! رائحة الفقر التي تعشش في كل مكان حتمًا تقتحم صدرك وتدخل رئتيك دون أي استئذان، لتختلط برذاذ الكحول المنطلق من تلك الأفواه السمراء التي تشققت شفتاها وجفت بشرتها فلم تعد سوى هياكل عظمية متحركة في الظلام!

أجساد عارية فقدت أنوثتها منذ زمن بعيد على يد الحرمان والجوع تتسكع على نواصي الحواري الفقيرة في محاولة لبيع ما تبقى منها!

هذا هو ليل الكونغو!

الليل في الكونغو يبدأ من السادسة، وتحديدًا عندما يغيب قرص الشمس معلنًا انتهاء الحياة لتبدأ حالة من حالات الموت تصيب الشوارع والأحياء والمحلات والسوبر ماركات والمطاعم!

الجميع يوصد أبوابه بالضبة والمفتاح خوفًا مما يخفيه الليل خلف ستائره،

لا أبالغ عندما أقول إن أرقى شوارع العاصمة الكونغولية يقع في براثن الظلام فما بالك بحواري وأزقة وحوانيت «كينشاسا»؟!

وكيف لا يحدث هذا وأنت في بلد لديه مشكلة حقيقية في ومضة النور ونقطة المياه.

على الرغم من أن الكونغو تقع في المرتبة الثالثة في إنتاج الكهرباء، حيث أنها تنتج 13% من حجم الكهرباء العالمية، إلا أنها تقع في براثن الظلام الدامس، بل وعندما يغيب نور الشمس تشعر وأنك قد عدت إلى القرون الوسطى، وعلى الرغم من أن هذا البلد يمتلك كمًّا لا يوصف من الثروات والموارد المائية المتمثلة في نهر الكونغو وبحيرة «تنجانيقا» والعديد من البحيرات والروافد، إلا أن سكانها يعانون من العطش ولديهم مشكلة حقيقية في الحصول على نقطة المياه ولا أبالغ عندما أقول إن الكثير منهم يستحمون في مياه المجاري، وأن المياه تباع في جراكن يصل سعر الواحد منها إلى دولار وربع الدولار!

ومثلها مثل الكثير من دول القارة السمراء تمتلك الثروات والموارد ولكن ليست لديها القدرة على إدارتها وتوجيهها، لذا غالبًا ما تكون عرضة للنهب من قبل الدول الغنية.

أعترف بأنني قد قاومت كثيرًا تلك الرغبة الجارفة التي تدفعني دفعًا إلى خوض غمار الليل في هذا البلد، حذرني الكثيرون من «دراكولات الليل» الذين قد يعترضون طريق سيارتي ليتغذوا على ما في جيوبنا، بل وجاءتني الأصوات مهللة منذرة بأنني بالتأكيد سأرى ما لا يسرني من مشاهد تخجل وتقشعر لها الأبدان!

الفضول قد نجح بجدارة واقتدار إلى أن يقودني وزميلي المصور الفنان حسام دياب إلى ركوب جواد الليل، واختراق بحور ظلماته بل والعيش مع دراكولات وخفافيش الظلام!

ما إن بدأت سيارتنا تتحرك وتتوغل في شوارع العاصمة كينشاسا حتى بدت الصورة واضحة وضوح الشمس، فتيات الليل في كل مكان من حولك في مشهد يجعلك تتوقف بل وتتأمل طويلًا، يقفن شبه عاريات بملابس تستطيع أن تعرف من خلالها بأنهن «للبيع» وأخريات وفرن على أنفسهن فكرة الملابس ووقفن يعرضن أجسادهن عيني عينك.

تجدهن جالسات أو واقفات أو يتمشين بخطوات متثاقلة هنا وهناك، ولكن سرعان ما يقفن وربما تستسلم أقدامهن للجري وراء السيارة التي تدخل الشارع، هذا ما حدث معنا بالضبط إذ فوجئنا بما يقرب من عشر فتيات يجرين وراء سيارتنا متحدثات باللغة الفرنسية التي لا نجيدها، فقط لم نفهم سوى كلمة «شيري».

ضبطت نفسي متلبسة بالحزن بل بمرارة لم يفارق مذاقها فمي إلى هذه اللحظة التي أكتب فيها سطوري.

مشهد تلك الأقدام المتسارعة اللاهثة وراء سيارتنا، كان جديرًا بالتأمل والصمت والدهشة والاستغراب والحزن والشجن وسيل الأسئلة الذي حاصرني: هل هن يتصارعن لبيع أجسادهن حبًّا في تلك الرغبة المتوحشة أم عشقًا للمال؟ هل خُلقن ليجدن أنفسهن

بهذا الشكل؟ هل ماتت قلوبهن ومشاعرهن، أم إنه الحرمان والجوع والفقر والاحتياج في هذا الزمن وفي ظروف مثل ظروف هذا البلد؟

أسئلة كثيرة دفعتني إلى أن أطلب من مرافقنا أن أجلس جلسة مع فتيات الليل، وهن جزء لا يتجزأ من المجتمع الذي أقوم برصده ونقله إليكم.

تعجب مرافقنا لرغبتنا وحاول أن يثنيني ولكنه فشل، فما كان منه إلا أن انطلق مسرعًا متجهًا نحو أحد بارات الليل في شوارع العاصمة الكونغولية «كينشاسا».

«بارات الكونغو» أشكال وألوان وأنواع وطبقات ما بين الخمس نجوم في الفنادق، والكافتيريات المغلقة وصالات الديسكو وبارات الدرجة الخامسة وليست الثالثة فحسب، وهي تلك المتناثرة في شوارع العاصمة، أضواء خافتة وبعض الكراسي البلاستيكية المتهالكة، وجميع أنواع الخمور وخاصةً البيرة الشعبية.

إذًا فهو مقصدنا «الدرجة العاشرة» ومرتادوها الذين يعدون الأغلبية الساحقة من الشعب الكونغولي.

فور أن جلسنا وتوسط مرافقنا تلك المنضدة الفقيرة إلا وفوجئنا بحصار من الفتيات؛ 3 على اليمين و4 على اليسار، وسرعان ما نزلت زجاجات البيرة الكونغولية وفتحت على مصراعيها!

رحت في حالة تأمل لتلك الجلسة وسألت نفسي كثيرًا من أين أبدأ معهن، وهل سيتحدثن ليفتحن لي قلوبهن؟

أجابني مرافقي الذي ربما شعر بحالتي قائلًا: تستطيعين أن تسألي ما تريدين، وسوف أقوم بدور المترجم، فقلت له: أريد أن أعرف ببساطة ظروف حياتهن ولماذا يسلكن هذا السلوك وهل لم يوجد بديل عن هذا العمل؟!

راح الرجل يترجم لهن، ورحت أنا أتأمل تلك الوجوه الفقيرة السمراء التي خلت من أي أنوثة، فلقد حل محلها ملامح وتجاعيد الفقر وبدت متلهفة على زجاجة بيرة ولقمة عيش تسد بها رمقها.

راح مرافقي يترجم لي ما قالته الفتاة الأولى التي تحدثت بجرأة شديدة وبعيون ثاقبة ناظرة لعيني تمامًا بدأت «سوني» حديثها قائلة:

«لدي طفلان من زوج كونغولي تركني وترك أسرتنا وذهب إلى أنجولا، ولا أعرف شيئًا عنه منذ خمس سنوات. تزوجنا بعد قصة حب ونجحنا في أن نتزوج بعد أن حملت بين أحشائي طفلتي الأولى، وبعد أن أنجبت الثانية ضاقت الظروف أكثر وكثرت الخلافات فما كان منه إلا أن تركني وغادر البلد كله، حاولت البحث عن عمل ولكني لم أجد والأجور قليلة جدًّا إن وجد هذا العمل، لذا فضلت أن أنطلق إلى الشوارع فهي أحن شيء علينا في هذه الدنيا، أنزل للعمل من السابعة مساءً وقد أعود لأطفالي

في الخامسة صباحًا حسب طلب الزبون. أعود وقد تناولت وجبة العشاء وفي جيبي بعض من الدولارات».

عندما سألتها عن الثمن الذي تتقاضاه في الليلة الواحدة قالت: «حسب عدد الزبائن، فالزبون الواحد يدفع عشرة دولارات ويمكن لي أن أعود بعد العمل مع أربعة رجال، أي أربعين دولارًا، وهذا بالطبع مبلغ يجعلني من الأثرياء في الكونغو».

أما الفتاة الأخرى كانت مقتضبة جدًّا في حديثها معي، واكتفت بالقول إنني ليس من حقي أن آخذ من وقتهن؛ ثم إنك أجنبية، أنتم لا تريدون منا سوى سرقة ثرواتنا وكنوزنا وأنتم المستفيدون الأوائل من خيراتنا، ونحن نعيش مثل المطاريد وأعتقد أنه ليس من الاحترام والذوق أن تجلسي معنا «وتتفرجي علينا». فهذا أمر مرفوض.

كاد مرافقي أن يعنفها أثناء الحديث، ولكني تدخلت في الوقت المناسب واعتذرت لها وقلت: إنني لا أنظر إليهن كأنهن في قفص الاتهام، بل بالعكس أنا أحاول أن أرصد الظروف السيئة التي دفعتهن دفعًا لهذا العمل.

«مارني» الفتاة الثالثة التي كانت تجلس في هدوء ممسكة بكوب من البيرة تحتسيه بغرام شديد وكأن شيئًا لم يكن، نظراتها إليّ كانت كفيلة بأن تشعرني بأن لديها ما تريد قوله، فطلبت من مرافقي أن يقول لها أريد أن أسمعك.

ابتسمت في هدوء قائلة: «لسنا البلد الوحيد الذي يعاني، بل معظم الدول الإفريقية تعاني هي الأخرى، لقد درست التاريخ وعشقت الجغرافيا وعشقت مصر والمصريين وحضارة الفراعنة والأهرامات، وطالما حلمت بزيارة بلدكم العظيم، أنتم كما يلقبونكم حضارة السبعة آلاف عام، ولكن اسمحي لي أن أقول لك إننا وقفنا بجانبكم في حربكم مع عدوكم اللدود، وأنتم وقفتم معنا في استقلالنا كما فعلتم مع معظم الدول الإفريقية لكن أين أنتم الآن؟!

ماذا فعلتم من أجلنا؟ لقد تركتمونا في نصف الطريق، نحن نريدكم أن تقتربوا منا، ومن مشاكلنا، أي يكون لكم دور حقيقي معنا.

أعطونا فرصة أن نستفيد من خبراتكم، لقد درست في إحدى الجامعات بالكونغو وحلمت أن أكمل دراستي في جامعة القاهرة لديكم، ولكن للأسف لم أستطع تحقيق هذا الحلم لأن وقتها لم يكن لديكم ما يسمى بالمنح الدراسية والبعثات، وكان علي أن أجمع مبلغًا كبيرًا من المال فانكسر الحلم».

فاجأني حديثها، وأحسست بأنها صاحبة هوية مختلفة من النساء، وساقني فضولي لأعرف ما الذي دفع بتلك المثقفة الجامعية لتتحول لفتاة ليل.

رفضت الإجابة عن تساؤلاتي ولكنها قالت لي كلمة واحدة: «إن

تحت خط الفقر يمكن للإنسان أن يبيع عضوًا من أعضائه، وليس جسده في الجنس فقط».

بحديثها كنت قد أصبت بحالة من الاختناق، أغلقت أوراق ملف الليل المعجون بالدموع والشجون، ومع إحكام إغلاقِ غرفتي الصغيرة في الفندق وجدتني أردد: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

3

أقف أمامه وجهًا لوجه، تنساب مياهه بهدوء، وتحمل صفحاته الكثير من الحكمة، فيلسوف بجدارة تحاكي مثيلته التي يحملها بين طياته نيلنا العظيم، قرص الشمس يداعب وجنتيه اللتين راحتا تغمزان لي بتدرجات الأزرق، بريقه ولمعانه نجح أن يصيبني بدهشة خطفت حواسي جميعها، ترى هل تحمل مياهه درعًا أو ربما دروعًا تحمينا مما نحن مقبلون عليه، أم أنها تخيلات رومانسية، وحلول حالمة تحمل المثل المصري الشهير «الجعان يحلم بسوق العيش»، أو «العطشان يحلم بمياه الكونغو»؟

هكذا كانت حالتي ما إن التقيت بنهر الكونغو، لأطل عليه إطلالة دامت ما يقرب من 3 ساعات، لم نتبادل فيها وزميلي المصور حسام دياب كلمة واحدة، وكأن نداهة صوتها أتانا من بعيد ليخطفنا إلى عالم آخر.

إذًا هو نهر الكونغو الذي يعد ثاني أطول نهر في إفريقيا بعد نهر النيل، وأولها من حيث مساحة الحوض، وثاني أكبر نهر في العالم من حيث الدفق المائي بعد نهر الأمازون، حيث يلقي ما يزيد على ألف مليار متر مكعب من المياه في المحيط الأطلسي، حتى إن المياه العذبة تمتد لتصل إلى مسافة 30 كيلومترًا داخل المحيط. إنه حوض نهر الكونغو، الذي كان يعرف قديمًا بنهر

زائير، الذي يوصف بالعظيم من ناحية حجمه وتعقيده، وكثرة وجود القنوات فيه، وهو موطن لأنواع عديدة من الأسماك، ويخلق نظامًا بيئيًّا غنيًّا جدًّا بتنوعه الحيوي.

نهر الكونغو الذي يتميز بعدم وجود دلتا له، حيث تنساب المياه المحملة بالطمي في خندق عميق وتمتد بعيدًا داخل المحيط الأطلسي ويبلغ طوله 4700 كيلومتر، ولديه قوة هائلة في دفع الماء إلى البحر حيث يدفع قرابة 41700 طن من المياه في الثانية، أي إنه أغزر من نهر النيل بخمس عشرة مرة.

الوقوف أمام النهر العظيم جعلني أستدعي الكثير من الآراء والمعلومات التي هاجمتني بضراوة، فكثير من الآراء تقول إنه لا بديل عن الكونغو وهو الحل الأمثل لمواجهة سد النهضة الذي تبنيه إثيوبيا، والذي سيحول بحيرة ناصر إلى مجرد بركة، تصحبنا إلى مجاعة مائية خلال السنوات المقبلة، إذًا الحل هو تحويل مسار نهر الكونغو.

الفكرة ليست بجديدة على الإطلاق وظهرت بشكل فعلي لأول مرة عام 1980م، عندما أمر الرئيس المصري أنور السادات، الدكتور إبراهيم مصطفى كامل والدكتور إبراهيم حميدة، بعمل جولة ميدانية في الكونغو لتقديم تصور عن الطبيعة الجغرافية للنهر، وبعد تقديم المشروع للسادات قامت الحكومة المصرية بإرساله إلى شركة آرثر دي ليتل، وهي الشركة العالمية المتخصصة في تقديم الاستشارات الاستراتيجية الأمريكية، لعمل

التصور المتوقع والتكلفة المتوقعة ثم ردت بالموافقة وأرسلت التقرير لمصر، وسبب الربط بنهر النيل هو وفرة المياه وزيادتها عن حاجة البلاد ووافقت حكومة الكونغو مقابل تقديم مصر خبراتها في شتى المجالات، وسيوفر ذلك حياة كريمة لشعوب السودان ومصر وجنوب السودان والكونغو، ولا يوجد نص واحد في القانون الدولي يمنع إقامة هذا المشروع، كما أن القانون الدولي يسمح بأنه إذا أعلنت مصر أنها تعاني فقرًا مائيًّا يكون لها الحق في طلب المياه من دول أخرى، وطبقًا للدراسات المقترحة أن المشروع ينفذ من ارتفاع 200 متر، عن طريق أربع محطات دفع متتالية يمكن من خلالها إنتاج طاقة كهربائية تبلغ 300 تريليون وات/ ساعة (تريليون يساوي حاصل ضرب مليون في مليون)، وهي تكفي لإنارة قارة إفريقيا بالكامل، ومن مميزات المشروع أنه يوفر لمصر نحو 95 مليار متر مكعب من المياه، تزداد إلى 112 مليار متر مكعب بعد عشر سنوات، وهي تكفي لزراعة 80 مليون فدان بمصر بما يعادل نصف الصحراء الغربية، ويوفر المشروع للدول الأربع (مصر ـ جنوب السودان ـ السودان ـ الكونغو) زراعة 320 مليون فدان صالحة للزراعة بالفعل.

وسوف تعمل الكمية المضافة إلى حصة مصر على غسل نهر النيل بصفة دائمة مما يلغي التلوث ويحسن جودة المحاصيل وتصديرها.

وفي الوقت نفسه تسمع آراء أخرى تتناقض، بل وتهاجم تلك

الفكرة واصفة إياها بالجنون، والأسباب كثيرة تأتي في مقدمتها أن نهر الكونغو ليس حلًّا لمشكلة سد النهضة، فمشكلة سد النهضة يتم معالجتها وتداولها مع إثيوبيا في إطار الاتفاقات والأعراف الدولية، وأن مقترح نهر الكونغو ما هو إلا محاولة خبيثة لتشتيت الأفكار وتفتيت الرأي العام وصرف النظر عن المشكلة الحقيقية ألا وهي سد النهضة، خاصة أن نهر الكونغو يصب في المحيط الأطلنطي بقوة دفع هائلة، وذلك نتيجة للانحدار الشديد في اتجاه الغرب، الأمر الذي يستحيل معه إعادة تعديل مسار النهر ليكون في اتجاه الشمال الشرقي، الأمر الذي يتطلب إنشاء مسار جديد يصل طوله نحو 1000 كيلومتر بفارق منسوب رفع يصل إلى 1500 متر -»حاول تتخيل الفرق»- يمر في مناطق استوائية من الغابات والأحراش التي لم تكتشف بعد وهو أمر يبدو في غاية الصعوبة عمليًّا.

ثم إن الكونغو ليس لها الحق في تنفيذ المشروع منفردة، نظرًا لأن نهر الكونغو يمر في خمس دول (دول حوض نهر الكونغو) وهي: (جمهورية الكونغو الديمقراطية – الكاميرون – جمهورية إفريقيا الوسطى – الجابون – غينيا)، ونقل المياه من حوض نهري إلى حوض آخر يعد انتهاكًا للقوانين الدولية، ويلزم لاستيعاب وتخزين وتصريف هذا الكم الضخم الإضافي من المياه (120 مليار متر مكعب) إنشاء العديد من المشروعات المائية على مجرى نهر النيل، الأمر الذي يتطلب تكاليف خيالية لم تؤخذ في الاعتبار.

لست متخصصة في أمور الري والمياه والنسب والتناسب، وليس دوري أو مسؤوليتي، وليس الأمر في يدي ولكني أرى أيضًا أن رصد ووصف ما رأيته ونقل ما سمعته هو من صميم مسؤولياتي، بل أهدافي، لعلي أدق ناقوسًا سبقت إلى دقه من سنوات ليست بعيدة لعل أذنًا تسمع وعينًا ترى وهو ما لم يحدث.

تلك هي الكونغو، بلد فقير مثله مثل باقي بلدان القارة السمراء، منهوب ومستغل وأيادٍ كثيرة تلعب في ملعبه، جهنم إفريقيا المشتعل بالكنوز والمعادن، دولة من دول المنابع ترقد على كنز من المياه، ورغم ضعفها وعدم استقرارها إلا أنها تقف شوكة في حلق الاتفاقية الإطارية، وترفض التوقيع عليها، أين نحن من هذا البلد، بل أين نحن من عمقنا الاستراتيجي وأمننا القومي، لماذا نقف مكتوفي الأيدي أمام قارتنا التي ننتمي إليها، ونعطي لها ظهورنا، ولا نفيق إلا على كابوس كبير يلاحقنا ويلاحق مصالحنا المائية؟

تركنا الساحة لأيادي عدونا اللدود والذي سيظل خالدًا على الرغم من كل عهود واتفاقيات السلام التي نكست رؤوسنا بل ومصالحنا أيضًا.

الفصل الثالث عشر

وختامها صهيوني

كنت أتمنى أن أضع بين يدي من يقرأ هذه الصفحات نهاية سعيدة على الطريقة الدرامية، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، بل إن رياحي لن تأتي بما تشتهي سفنك.

ختامه «مصهين»، وهنا لا تأتي الكلمة بالمعنى الدراج والعامي «مطنش»، بل بالمعنى الذي يرفضه عقلك ويمقته قلبك، الكلمة تعني «صهيوني» أي إسرائيلي.

الموضوع لا يحتاج إلى مقدمات وديباجات ونحيب وصراخ ولطم على الخدود وبكاء على لبن مسكوب وجلوس على الأطلال، المسألة أكثر بساطة وتعقيدًا في الوقت نفسه.

سؤالان ربما يلخصان سطورًا مقبلة، الأول: "ماذا تفعل إسرائيل في قارتنا السمراء؟".

والثاني: «أين نحن؟».

سؤالان سبق وأجبت عنهما من خلال مجموعة من الملفات الصحفية التي نشرت في «الأهرام»، و«المصري اليوم» في حقب مختلفة مرت بها مصر، في فترة حكم مبارك، وعقب ثورة 25 يناير، وفي فترة حكم الإخوان المتأسلمين.

أجراس ونواقيس وكروت صفراء وأخرى حمراء وعلامات استفهام رايحة وأخرى للتعجب جاية، محاولات مضنية وتوسلات

مهينة، ولا حياة لمن تنادي، «أذن من طين والتانية من عجين».

تمكن اليأس مني فترات ولكنني نجحت بجدارة في أن أتغلب عليه، تابعت بمرارة كل المحادثات والمفاوضات الفاشلة والتصرفات الصبيانية غير المسؤولة على مدار العصور الماضية، وأنصت بألم لما وصلنا إليه حاليًا «محلك سر». سد الألفية سيتم تشغيله في القريب العاجل، وضحكات وابتسامات صفراء متبادلة بين مصر وبلاد الحبشة، دور مصري مهمش حلت محله بلدان أخرى كثيرة.

جولات عديدة كان شغلي الشاغل فيها هو ملف النيل، والأهم هو حالة الرصد التي وقعت فيها دون أي استئذان بل وجدتني مسيرة لها ولست مخيرة، خاصة أن الأمر يتعلق برصد نشاط ملموس لعدونا اللدود إسرائيل في قلب القارة الإفريقية بشكل عام ودول حوض النيل بشكل خاص.

صدمت كثيرًا، واندهشت أكثر، وأصبت بالذهول مرارًا وتكرارًا، تتبعت خطواتهم السريعة والمتلاحقة، واستطعت أن أشم رائحتهم التي غزت صدري في صلب بلاد دول حوض النيل.

أعترف أننا منذ اللحظة الأولى التي قررنا فيها أن نخطو بأقدامنا إلى دول منابع النيل، ونحن نخطط وندرس ونحدد أهدافنا وأولوياتنا الرئيسة، تابعنا بشغف واهتمام لا نحسد عليه الزيارات المتبادلة بين رؤساء إسرائيل ودول المنابع، حفظت عن

ظهر قلب ما دار فيها، واقتفيت آثار أقدامهم على الأرض السمراء، في كل رحلة كانت الطائرة تغادر فيها سماء القاهرة متجهة لدول القارة العذراء، كنت أتذكر مختلف الزيارات الإسرائيلية لها بدءًا بزيارة ليبرمان عام 2009 لكل من إثيوبيا ونيجيريا وغانا وأوغندا وكينيا، تلك التي تعتبر الزيارة الأولى لإفريقيا منذ زيارات جولدا مائير لها قبل 50 عامًا، حيث كانت القارة السوداء أحد الأهداف المهمة للسياسة الخارجية الإسرائيلية، وهي الدولة الوليدة حينها وكانت لم تفطم من الرضاعة بعد ولكن بُعد نظر القيادة الإسرائيلية كان واضحًا منذ اللحظات الأولى لقيام هذا الكيان، وقد استغلت إسرائيل ذلك جيدًا حيث قدمت الدعم الزراعي والتقني للدول الإفريقية وأرسلت المستشارين والمدربين واستوعبت الطلاب الأفارقة وأمدت الدول الإفريقية بالسلاح وبالمستشارين العسكريين.

ثم زيارة بنيامين نتنياهو لأربع من دول حوض النيل بدأها بأوغندا ثم كينيا وإثيوبيا لتنتهي في رواندا في عام 2016.

وهي الزيارة التي وصفها نتنياهو بأنها «عودة إسرائيل إلى إفريقيا وعودة إفريقيا إلى إسرائيل». رحلته التي لم تكن مصادفة ولكنها كانت على الأقل تحمل معنى رمزيًّا وتضامنًا معنويًّا مع إثيوبيا في موقفها إزاء مشروع سد النهضة في ظل التوتر مع مصر.

وتلك الزيارة التي استندت إلى خطوط رئيسة ارتكزت عليها

السياسة الإسرائيلية إزاء إثيوبيا لتعزيز العلاقات الاستراتيجية بين البلدين، في مقدمتها الزعم بوجود علاقات تاريخية بين إسرائيل وإثيوبيا ترجع لعشرات القرون الماضية، يلي ذلك طبيعة العلاقة الدينية بين البلدين فإثيوبيا من وجهة النظر الإسرائيلية جزيرة مسيحية في وسط إسلامي تعارضه إسرائيل والتهديد مشترك للبلدين من هذا الخطر.

توقفت كثيرًا أمام كلمات رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو فور وصوله إلى بلاد الحبشة، وتأملت جيدًا تلك العبارات التي لاحقتني كثيرًا والتي سأضعها بين يديك حرفيًّا: «عندما أشاد رئيس الوزراء بالعلاقات المميزة والتاريخية بين إسرائيل وإثيوبيا وأضاف أن إسرائيل تنوي تعزيز التعاون بين البلدين في جميع المجالات السياسية والاقتصادية وخاصة في مجال كبح جماح الإرهاب».

يقول نتنياهو: «سيدي رئيس الوزراء، أود أن أشكركم شخصيًّا على حفاوة استقبالي واستقبال حاشيتي في زيارتنا إلى إثيوبيا. وفي لقائنا قلتم شيئًا يجسد بنظري كل الأمر – قلتم إن لإسرائيل مكانة خاصة في إثيوبيا، ولإثيوبيا مكانة خاصة في إسرائيل. هذا صحيح جدًّا وهذه العلاقة بدأت قبل 3000 عام مع الملك شلومو وملكة سبأ وأقترح ألا ننتظر 3000 عام أخرى من أجل تعزيز تلك العلاقات المتميزة.

أفتخر شخصيا بأنني أول رئيس وزراء إسرائيلي يزور إثيوبيا منذ أكثر من 30 عامًا. لن ننتظر 30 عامًا أخرى حتى الزيارة

القادمة. إننا ملتزمون بتعزيز الشراكة والصداقة بيننا بطرق عملية. هذه ليست محاولة يتم القيام بها مرة واحدة أو مجرد تصريحات. هذه هي عبارة عن خطة للتعاون في مجالات مهمة بالنسبة لشعبينا. المجال الأول والأهم هو المجال الذي تطرقتم إليه وهو مجال الزراعة والمياه والمواشي والمحاصيل – ولكم، أيها رئيس الوزراء، خبرة كبيرة فيها. هذا ينبع من أبسط شيء وهو المياه ولإسرائيل خبرة كبيرة في هذا المجال. ولكن سيجري تعاون في مجالات أخرى أيضًا. نريد أن نشكل عدة أطقم مشتركة ستعمل سويًّا مع الحكومتين ولكن أيضًا مع الشركات التجارية التي قد طوّرت قدرات خاصة في هذا المجال. تلك القدرات قد جُربت في إسرائيل وفي العالم وتلك الشركات ستعمل معكم ومع شركات إثيوبية. نتعهد بذلك. هذه السفينة تبحر اليوم من خلال هذا اللقاء بين رجال الأعمال من الطرفين».

تابع رئيس الوزراء نتنياهو: «المجال الثاني هو الرقمية، ومعناه هو تكنولوجيا المعلومات والفضاء والتعليم والطب الرقمي والمجالات الكثيرة الأخرى التي تغير العالم، وإسرائيل تريد أن تعمل معكم فيها حينما تقومون بتطوير دولتكم ومجتمعكم. هنالك أيضًا المجال الذي نفضّل جميعًا ألا تكون لنا الحاجة بالتعاون فيه وهو مكافحة الإرهاب الذي يجتاح القارة الإفريقية والقارة الأوروبية والشرق الأوسط والعالم أجمع. وفي هذا المجال اكتسبنا -من باب الضرورة- الخبرات والقدرات المهمة لكفاحنا المشترك من أجل انتصار الحضارة على الوحشية، وهذا ما

نشاركه مع دول إفريقية أخرى ودول أخرى في كل أنحاء العالم. أعتقد أن تلك الجهود الرامية إلى حماية أمننا تربط بيننا أيضًا. أخيرًا، أود أن أقول إنني أتأثر جدًّا من أن التعاون مع إثيوبيا ودول إفريقية أخرى بات ينضج إلى درجة الاعتراف بأن جميع الدول الإفريقية دون استثناء تستطيع أن تستفيد من التعاون المتجدد مع إسرائيل. قلت ذلك سابقًا وأقول ذلك الآن مرة أخرى – إسرائيل تعود إلى إفريقيا وإفريقيا تعود إلى إسرائيل. إنني أثمّن كثيرًا دعمكم ودعم دول شرق إفريقيا لعودة إسرائيل إلى الاتحاد الإفريقي كدولة مراقبة. إننا نؤمن بإفريقيا وبأنه توجد لها إمكانيات كثيرة. نريد أن نكون جزءًا من قصة نجاحكم وأود أن أشكركم مرة أخرى على لقاء رائع، لقاء غير قابل للنسيان، لقاء تاريخي. شكرًا لكم، سيدي رئيس الوزراء».

لا يمكن أن تمر كلمات الرجل مرور الكرام، ولا يمكن أن نتجاهل زيارة ليبرمان إلى بلاد حوض النيل، ذلك الرجل الذي كان وما زال حلمه الأوحد إلى ضرب السد العالي وتدميره.

علينا أن نعلم أن سياسة إسرائيل الإفريقية قد استهدفت تحقيق العديد من الأهداف، في مقدمتها تحطيم أسوار العزلة واختراق الطوق الذي فرضته الدول العربية على إسرائيل، وخلق عمق إفريقي لإسرائيل يناقض السياسات العربية، ويقلص النفوذ العربي في إفريقيا، خاصة أن أهمية دول المنابع تحديدًا تتمثل في أنها شريان الحياة لمصر.

ومع انسحاب مصر من إفريقيا وعدم الرغبة في استثمار ميراث حقبة الخمسينيات، وكذلك العديد من الدول العربية، تقدمت إسرائيل لشغل هذه المكانة، لملء هذا الفراغ من خلال تشخيص احتياجات القارة السمراء، للأمن والتسليح والتدريب والتكنولوجيا في مجال الطاقة المتجددة والري والمشروعات الإنمائية، مقابل توسيع السوق أمام المنتجات الإسرائيلية والصادرات للمنتجات الإسرائيلية وفتح أسواق جديدة في العديد من الدول الإفريقية ذات الصلة، بمنابع النيل، وكسب مواقع جديدة للدبلوماسية الإسرائيلية، تدفع العالم العربي لليأس من محاصرة إسرائيل وفشل هذه السياسات في تحقيق أهدافها.

بتلك الحالة وببعض من المعلومات دخلنا إلى دول منابع النيل، لأرى وأرصد وأسمع وأنقل ما توصلت إليه من على أرض الواقع، بداية من رجل الشارع العادي وحتى المسؤولين الهمام في تلك الدول، والحقيقة هم لا يرون أي غضاضة في قبول اليد الإسرائيلية التي تمد لهم العون والمساعدة في كل المجالات التي حرموا منها سنوات وسنوات، إجاباتهم ونظراتهم لي ما إن أسألهم عن الدور الإسرائيلي كانت تعي وتدرك تمامًا قلقي واستيائي، ولكن لسان حالهم كان يقول: «يعني أنتم لا بترحموا ولا بتسيبوا رحمة ربنا تنزل، ماذا قدمت مصر لنا منذ الستينيات، ماذا فعلتم لنا، عشتم في النور والرغد والرفاهية بحصصكم في مياه النيل، وانسحبتم من أراضينا، تركتمونا نغرق في الفقر والظلام والمجاعة، ولم تقدموا لنا سوى مشاريع وهمية، وعندما أفقنا لأنفسنا واستخدمنا

حقنا الطبيعي في الحياة، ألا وهو بناء سدود لنستغل المياه التي تنبع من أراضينا من أجل أن ننير حياتنا، وقفتم لنا بالمرصاد وتعاملتم معنا باستعلاء تارة، وبتجاهل مرة وبإعلان الحرب بصبيانية مرة أخرى، وعندما تمد لنا الدول الأخرى أياديها للمساعدة تريدون أن تمنعوها وتدينونا وتتهمونا بأبشع التهم».

لا تعليق. الصمت بل الخرس أمام كلماتهم وتعبيراتهم ونظراتهم كانت كل ما أملك، ولكن هل يمكن أن يصيبني الخرس العاجز وأنا على أرض المحروسة؟

عبر تلك الوريقات أسمح لنفسي أن أخلع عباءة الصمت والخجل لأعرض فقط دون أي تنظير بعضًا من النشاط الإسرائيلي في دول منابع النيل، وأكرر التي تعتبر عمقنا الاستراتيجي وأمننا القومي، ولكم في النهاية التعليق.

البداية من عند بلاد الحبشة «إثيوبيا» تلك التي وضعتها إسرائيل في مقدمة اهتماماتها، ولعل عهد الرئيس الإثيوبي «ميليس زيناوي» قد شهد تقدُّمًا ملحوظًا في العلاقات بين إثيوبيا وإسرائيل، تلك التي مرت بالكثير من المراحل، ولعل ما شهدته هو آخر تلك المراحل بداية من السدود على أعالي «الآباي» والتي ساهمت إسرائيل في بنائها، ومرورًا بإيفاد 20 طالبًا من أكاديمية النقل أو ما يسمى بمعهد النقل البحري الإثيوبي في عام 2012 إلى مركز حيفا في إسرائيل لتلقي التدريب على قواعد النقل البحري، تلك البعثة التي استمرت 4 أشهر وعندما عاد

الطلبة استقبلهم رئيس الوزراء الإثيوبي استقبالًا حافلًا، بجانب عملها في مكافحة الأمراض الاستوائية n.t.d. ونجاحها بالفعل في القضاء على انتشار مرض البلهارسيا من نسبة 100% إلى 20%، بل وإطلاق برنامج لمدة 3 سنوات للحد من انتشار الملاريا والسل، بالتعاون مع مركز الأمراض الاستوائية في جامعة بن جوريون ووكالة التعاون الدولي مشاف الإسرائيلية، أيضًا لهم نشاط ملحوظ في الجمعيات الخيرية هم لديهم 7 جمعيات أشهرها «جسر الأمل» للمساعدة في المشروعات الإنسانية وتوفير ملاجئ للمتشردين وتوفير رعاية صحية للفقراء، ولهم أيضًا دور فعال في مجال مكافحة مرض التراكوما الذي يصيب العيون، هذا غير وجود العديد من الأطباء الإسرائيليين الذين يجرون عمليات جراحية ناجحة في كل الأقاليم الإثيوبية.

والحديث عن دورهم في الصناعات لا ينتهي وعلى سبيل المثال لا الحصر صناعة الألبان، فلقد أرسلوا خبراء لكل الأقاليم الريفية الإثيوبية لرفع وعي الفلاحين، وقاموا بإنشاء مصانع ووفروا العديد من أحدث الآلات والآليات الحديثة لتنمية وتحديث صناعة الألبان في إثيوبيا، ناهيك عن احتكارهم لمصانع الطحينة والأسمنت وتكرير البترول وتفوقهم في زراعة الورد وتصديره أيضًا.

ولا يمكن أن أتحدث عن اليد الاسرائيلية في دول المنابع عامة وبلاد الحبشة خاصة، دون أن أتعرض بالذكر لكتاب «إسرائيل

وإفريقيا»، الصادر في إسرائيل، ليكون بمثابة مرجع لنا جميعًا، ذلك الكتاب الذي فاجأنا به المترجم المصري العبقري عمرو زكريا عن اللغة العبرية، وأصدره في كتاب ضخم من 616 صفحة، من الحجم الكبير، عن أكاديمية آفاق الدولية، التي تعد من أبرز حصون اللغة العبرية في مصر، حيث تنبع أهمية ذلك الكتاب من أن مؤلفه الدكتور آريه عوديد الذي يعد من أبرز الدبلوماسيين الإسرائيليين الذين جابوا الكثير من الدول الإفريقية، وكان مشاركًا ومطلعًا على عملية نسج العلاقات الإسرائيلية في القارة السمراء. قد بدأ عوديد عمله الدبلوماسي في أوغندا عام 1961، وفي السبعينيات كان مسؤولًا عن المصالح الإسرائيلية في كينيا، كما كان مندوب إسرائيل في مركز الأمم المتحدة لشؤون البيئة في العاصمة الكينية نيروبي، وعمل في التسعينيات سفيرًا في سوازيلاند وكينيا، ثم سفيرًا غير مقيم في لاسوتو وزامبيا وموريشيوس وجزر سيشيل، وعمل محاضرًا للدراسات الإفريقية في الجامعة العبرية بالقدس. ونشر العديد من الكتب والمقالات عن العلاقات الإسرائيلية الإفريقية، والإسلام واليهودية في إفريقيا، وكذلك عن اللغة السواحلية.

ولعل أهم ما يلفت أنظارنا في هذا الكتاب هو الأجزاء المتعلقة بالسرد المثير لتاريخ العلاقات بين إسرائيل وإثيوبيا، والذي اتخذ الطابع السري في أخطر مراحله، وما يتعلق منها بنهر النيل والسيطرة على مدخل البحر الأحمر، من خلال تعاون استخباراتي عسكري وثيق بين البلدين.

الدبلوماسي الإسرائيلي آريه عوديد، أشار في بداية كتابه إلى أن للكنيسة المسيحية الأرثوذكسية الإثيوبية، التي يبلغ نسبة مؤمنيها نحو 50% من إجمالي السكان، روابط طيبة مع الشعب اليهودي. فالمسيحيون الإثيوبيون يعتبرون إسرائيل الأرض المقدسة، ونظرتهم إلى اليهود إيجابية ومشجعة. وترجع هذه الرؤية إلى التراث الإثيوبي القديم الخاص بزيارة ملكة سبأ للملك سليمان في القدس. وتُنسَب العائلة القيصرية في إثيوبيا إلى الملك سليمان، والأسد، رمز القيصرية، ذلك لما ورد في التوراة «يهوذا جرو أسد». وفي المسيحية الإثيوبية هناك تأثير راسخ لليهودية عليها مثل: وجود الختان، واليوم الثامن، وتحريم أكل لحم الخنزير، والراحة من العمل في يوم السبت.

أما موقف إثيوبيا من إسرائيل والعرب والقضية الفلسطينية فيظهر جليًّا في التصويت في الأمم المتحدة على خطة تقسيم فلسطين، حيث امتنعت إثيوبيا، كما أيدت الحكومة والكنيسة الإثيوبية بشدة انتصارات إسرائيل في حروب 1948، و1956 و1967. وعزز الإسرائيليون ذلك الاتجاه عبر الترويج لادعاء يقول إن من مصلحة إثيوبيا أن تكون إسرائيل قوية، وإنه «لو انتصر العرب لكانت إثيوبيا هدفًا رئيسًا لهم».

ويعترف عوديد بالأنشطة التجسسية التي مارستها إسرائيل على منظمة الوحدة الإفريقية، التي يقع مقرها في العاصمة الإثيوبية أديس أبابا، فيقول «إن حقيقة وجود سفارة لإسرائيل في

أديس أبابا مقر منظمة الوحدة الإفريقية، قد سهَّل على إسرائيل متابعة نقاشات المنظمة نوعًا ما، ومقابلة المبعوثين الأفارقة الذين جاؤوا لحضور المؤتمرات».

وبعد فتح السفارة الإسرائيلية في إثيوبيا تطورت علاقات واسعة بين إسرائيل وإثيوبيا، في إطار أنشطة مركز التعاون الدولي التابع لوزارة الخارجية الإسرائيلية، والذي كان غطاء لكل أشكال التعاون الاستخباراتي والعسكري بين إسرائيل والكثير من الدول الإفريقية.

وتحت هذه اللافتة، عمل نحو عشرين خبيرًا إسرائيليًّا في إثيوبيا في مجالات الزراعة، وصيد الأسماك، والبناء، والطب. وسافر عشرات الطلاب الإثيوبيين سنويًّا للتدرب في إسرائيل. كما تبنَّت الجامعة العبرية كلية علم الميكروبات التابعة لجامعة هيلا سيلاسي، كما ساعدت على إقامة النظام القضائي في إثيوبيا. كما أنشأت إسرائيل أول بنك للدم في إثيوبيا، وأرسلت خبيرًا لإدارة مدرسة فندقية، وقدَّمت الاستشارات البحرية من أجل تطوير ميناء مصوع، وكان هناك ثلاثة جيولوجيين إسرائيليين مستشارين في وزارة التعدين. كما أنشأت إسرائيل، في أبادير، مزرعة نموذجية لزراعة القطن، وقدمت الاستشارات في مجالات رصف الطرق، والهندسة، وصيانة الموانئ، وتطوير الخدمات الصيدلية.

وفي الستينيات وبداية السبعينيات، بلغ عدد أعضاء وفد الجيش الإسرائيلي في إثيوبيا أكثر من عشرين ضابطًا عملوا في مجال

التدريب، والتدريس في الأكاديمية العسكرية، وفي التخطيط والمخابرات، وكذلك في تدريب وحدات النخبة لمقاتلة الجماعات السرية. كما درَّب رجال الشرطة الإسرائيلية شرطة حرس الحدود الإثيوبية. ولقد زار رئيس الأركان حاييم بارليف، إثيوبيا عام 1971.

ومع اندلاع حرب أكتوبر 1973 زاد العرب من ضغوطهم، خاصة الرئيس الراحل محمد أنور السادات، والتي حملت نوعًا من التهديد. وفي 23 أكتوبر 1973 قطعت إثيوبيا علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. وكانت الدولة الـ 18 من 30 دولة قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل. ومع إغلاق السفارة الإسرائيلية في أديس أبابا، قامت إسرائيل بترحيل جميع خبرائها المدنيين والعسكريين.

وفى عام 1974، بعد نحو عام من قطع الإمبراطور هيلاسيلاسي للعلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، تمت الإطاحة به في انقلاب عسكري، يشير البعض إلى دور إسرائيلي فيه، ليتقلد منجستو الحكم.

ويقول آريه عوديد إنه على المستوى غير الرسمي، كانت العلاقات أفضل بين إثيوبيا وإسرائيل، حيث كان هناك تبادل تجاري، ومَنحت إثيوبيا تأشيرات دخول للإسرائيليين للزيارة أو لحضور المؤتمرات العلمية. كما وصل مئات الحجاج الإثيوبيين إلى إسرائيل، ولم تمنع إثيوبيا طائرات شركة «العال» الإسرائيلية

عن التحليق فوق أراضيها؛ في طريقها إلى كينيا أو جنوب إفريقيا.

من بلاد الحبشة إلى أوغندا «يا قلبي احزن واحزن».

فقد وصلت «البجاحة» إلى ما هو أبشع من ذلك بكثير في شلالات بحيرة فيكتوريا، التي اكتشفها الرحالة البريطاني جون سبيك والذي ادعت إسرائيل أنه يهودي في أحد أهم المغالطات المعتادة من الجانب الصهيوني، لتحاول القول بأن مكتشف منابع النيل يهودي وإسرائيلي. ولكني اكتشفت أثناء رحلتي الأخيرة إلى مدينة جنجا أن شلالات بحيرة فيكتوريا بلا مبالغة قد اختفت وتحول النهر الخالد في أوغندا إلى بركة، مجرد بركة مياه راكدة لا يقطنها سوى الموت، لا شيء سوى نعيق الغربان وبعض فقراء أوغندا الذين يمتطون قواربهم البدائية الصغيرة في محاولة فاشلة لصيد الأسماك التي رحلت عن المكان هي الأخرى.

وعلمت أن السبب هو سد أوغندا الذي بني وسط منابع بحيرة فيكتوريا، والذي ساهم في تقليل منسوب مياه النهر ونتيجة ذلك انتقلت المنابع إلى ضواحي مدينة جنجا.

بناء السد تم بتمويل إيطالي ــ صيني مشترك، وما زالت البحيرة في انتظار بناء 4 سدود، منها 2 بإيعاز وتمويل إسرائيلي، ولعل هذا ما قد يفسر زيارة وزير الخارجية الإسرائيلي ليبرمان منذ سنوات إلى أوغندا، وبالتحديد منابع النيل هناك لمقابلة

العديد من المسؤولين الأوغنديين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية موسيفيني الذي رحب به ترحيبًا عميقًا وقدم له وجبة دسمة من رجال الاقتصاد والأعمال الأوغنديين ونحن في سبات عميق.

والعلاقات الأوغندية الإسرائيلية ليست جديدة أو وليدة العهد، بل بدأت وتوطدت منذ زمن، وكانت نقطة الانطلاق من عند التعاون العسكري ما بين البلدين، إلى جانب النشاطات الاقتصادية الإسرائيلية في هذا البلد وقد دخل الكثير من المستشارين العسكريين الإسرائيليين إلى أوغندا لأن مستوى التدريب والخبرات في الجيش الأوغندي كان متدنيًا، وهناك عدد كبير من المستشارين الإسرائيليين في مجال القوة الجوية والدفاع الجوي والقوات البرية والقوات الخاصة والدروع، وتتراوح أعدادهم ما بين 250 و300 ضابط.

ولا يمكن أن نتجاهل أن أوغندا تشتهر أيضًا بأنها برازيل إفريقيا نظرًا لثرواتها من الغابات، يوجد بها مناجم كبيرة للنحاس والياقوت والذهب بالإضافة إلى منتجات زراعية ثمينة مثل القهوة والشاي والقطن، حيث تعتبر هذه الثروات محط اهتمام الدول الاستعمارية وكذلك الكيان الإسرائيلي.

ووقعت أوغندا والكيان الإسرائيلي اتفاقًا في مارس 2000، أثناء زيارة وفد من وزارة الزراعة الإسرائيلية، برئاسة مدير الري في الوزارة، موشي دون جولين، ينص على تنفيذ مشاريع ري

في عشر مقاطعات أوغندية، وإيفاد بعثة أوغندية إلى الكيان الإسرائيلي لاستكمال دراسة المشاريع، التي يقع معظمها في مقاطعات شمال أوغندا، بالقرب من الحدود الأوغندية المشتركة مع السودان، وكينيا، ويجري استخدام المياه المتدفقة من بحيرة فيكتوريا لإقامة هذه المشاريع، وهو ما يؤدي إلى نقص المياه الواردة إلى النيل الأبيض، وقد كشفت وزارة الخارجية المصرية في عام 2009 أن نظيرتها الأوغندية أبلغتها باعتزامها إنشاء عدد من السدود الصغيرة لأغراض الزراعة وتقسيم المياه، وجاء رد الوزارة بأن هذه السدود قد تؤثر على حصة مصر من المياه، واتهمت مصر وقتها الكيان الإسرائيلي بأنه المحرض على هذه الخطوة حيث يجري إنشاء 3 سدود على نهر النيل في أوغندا بمباركة ودعم إسرائيليين.

ونظرًا للمعلومات التي ذكرناها فإن الكيان الإسرائيلي قد نجح إلى حد بعيد في تأمين مصالحه السياسية والاقتصادية والعسكرية في أوغندا، وحقق الكثير من الأهداف في هذا المجال، لكن ينبغي الإشارة أيضًا إلى هدف آخر كان الكيان الإسرائيلي يعمل على الوصول إليه، وهو الاقتراب من السودان عبر أوغندا والضغط على السودان والعمل على تقسيمه لأن هذا الكيان كان يخشى كثيرًا من وجود سودان قوي في شرق إفريقيا، وقد ساعدت تل أبيب الانفصاليين في جنوب السودان عسكريًّا واستخباراتيًّا وأرسلت إليهم الأسلحة، وقد أوصى الكيان الإسرائيلي أوغندا أن تعمد إلى

إنشاء معسكر لتدريب الانفصاليين السودانيين في قاعدة قرب الحدود مع السودان، وقد قدمت أوغندا كل أنواع الدعم اللوجيستي للانفصاليين السودانيين إذعانًا لرغبة الإسرائيليين في هذا الشأن.

***

قد يندهش البعض حين يعلم أن علاقات إسرائيل مع كينيا على سبيل المثال، بدأت قبل استقلالها عن بريطانيا. فيكشف عوديد أن رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير التقت عام 1962، جومو كينياتا، الذي أصبح رئيس كينيا بعد الاستقلال، وكان صديقًا قويًّا لإسرائيل. بل وصلت درجة العلاقات إلى أن كينياتا شارك في وضع حجر الأساس لمبنى السفارة الإسرائيلية في نيروبي يوم 11 ديسمبر 1963، بحضور وزيرة الخارجية الإسرائيلية آنذاك جولدا مائير، وقبل يوم واحد من إعلان استقلال كينيا في 12 ديسمبر 1963، الغريب في الأمر أيضًا أن نفس الزعيم الكيني ربطته بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر صداقة عميقة، انعكست بقوة على العلاقات التي اتسمت بالقوة والصداقة ما بين الشعبين المصري والكيني، وكينيا أيضًا هي تلك الأرض التي كانت من أوائل الدول التي بادرت بالتوقيع على الاتفاقية الاطارية التي تعيد توزيع حصص مياه النيل ما بين دول المنبع والمصب.

وها هو الاقتصاد الكيني مفتوح وتنطبق عليه صفة الليبرالية ولكنه في قبضة الهنود واليهود، والهنود لأنهم موجودون منذ زمن وتحديدًا منذ فترة الاحتلال الإنجليزي لبلادهم، عندما كانوا يأتون إلى كينيا للعمل في مجال البناء ولم يعودوا بل استقروا وكونوا عاصمة تجارية في هذه الأيام، بينما لم يكن من حق الأفارقة فتح حساب لهم في البنوك، لذلك فإن الوجود الهندي هنا ضروري للاقتصاد بل هو تاريخي.

«أنت في كينيا إذًا أنت في إسرائيل» عبارة كثيرًا ما سمعتها طوال رحلاتي المتكررة إلى أرض التراب والزهار كما يطلقون عليها، بدءًا بقطاع السياحة الذي تحكمه الأيدي الإسرائيلية بالحديد، وحتى مفاصل الدولة الأمنية والاقتصادية.

ولا يمكن لي أن أنسى أو أتجاهل زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو والتي قام بها عام 2016، تلك التي علينا الوقوف أمامها كثيرًا، تأمل أبرز ما قاله نتنياهو والذي يتلخص في أن بلاده وكينيا تعملان معًا لمواجهة الإرهاب، بل وتواجهان نفس تحديات الإرهاب مستشهدًا بالهجوم الذي نفذه أربعة جهاديين في 2013 على مركز «ويست غيت» للتسوق، الذي يملكه إسرائيليون في نيروبي والذي أدى إلى مقتل 67 شخصًا على الأقل.

نتنياهو قالها بالحرف: «أعداء كينيا هم أعداء إسرائيل، وهذا ما يدفعنا إلى تقديم المساعدة»، تلك العبارة التي صدرت عنه في نوفمبر 2011، خلال استقباله نظيره الكيني السابق رايلا

أودينيغا، في القدس، وتختصر الكثير من الكلام عن متانة العلاقات بين الطرفين.

تاريخ طويل من العلاقات بين البلدين التي بدأت فور حصول كينيا على الاستقلال عام 1964، والعامل الأبرز فيها هو التعاون الأمني والاستخبارتي، والذي تجسد بوضوح في مناسبات عديدة.

ففي فبراير من عام 1964، وبعد شهرين من نيل كينيا استقلالها، اجتاز أربعة ضباط كينيين تدريبات طيران في إسرائيل، حسب تقرير نشرته صحيفة «معاريف» العبرية في سبتمبر عام 2013.

وفي أعقاب حرب أكتوبر 1973 (حرب يوم الغفران حسب التسمية الإسرائيلية)، قطعت كينيا علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل، لكنها واصلت الحفاظ على العلاقات الاقتصادية والعسكرية.

وفي عام 1975، طلبت من إسرائيل مستشارين عسكريين ودبابات، حسب تقرير «معاريف».

وفي يوليو 1976، نفذت قوات خاصة إسرائيلية عملية لتحرير رهائن كانوا عن متن طائرة متوجهة من تل أبيب إلى باريس، وتوجه بها مختطفوها إلى «مطار ناير» في مدينة عنتيبي بأوغندا، وتجلت في هذه العملية متانة العلاقات الأمنية بين تل أبيب ونيروبي.

إذ أدارت إسرائيل عملية تحرير الرهائن من قاعدة خلفية في كينيا.

وحسب كُتيّب العلاقات الصادر عن السفارة الإسرائيلية، ما كانت إسرائيل لتنجح في تنفيذ عملية الإنقاذ؛ حيث المكان بعيد جدًّا عن إسرائيل، لولا المساعدة الكينية التي سمحت للمقاتلات الإسرائيلية بالهبوط في كينيا والتزود بالوقود، قبل التوجه لتنفيذ العملية في أوغندا، في الوقت الذي كانت فيه الدول الأخرى المجاورة تتردد في تقديم المساعدة المطلوبة.

وفي عام 1978، باعت إسرائيل لكينيا سفينتي صواريخ بحر بحر من نوع «غبريئيل» ومعدات عسكرية أخرى كالبزات والمطابخ الميدانية، وفق تقرير «معاريف».

وفي الثمانينيات درج المسؤولون الإسرائيليون على زيارة كينيا سرًّا.

وعام 1993 عادت كينيا لتقيم علاقات دبلوماسية رسمية مع إسرائيل.

وفي مارس 2016، كشفت زيارة أجراها الرئيس الكيني، أوهورو كينياتا، إلى القدس، كأول رئيس كيني يزور إسرائيل منذ استقلال بلاده، للإعلان عن علاقات التعاون الوثيق بين البلدين، الذي ظل الكثير منه طي الكتمان.

إذ كشفت الزيارة تسارع وتيرة واتساع حجم تلك العلاقات، كما أنها تكللت بتوقيع الجانبين عددًا من الاتفاقيات في مجالات عديدة شملت: الزراعة والمياه والري، والبنية التحتية والطرق والجسور، والطاقة والصحة العامة وغيرها، إلى جانب توثيق التعاون المشترك وتبادل المعلومات في قضايا الأمن ومكافحة الإرهاب، والتعاون الثنائي في مجالات الفضاء الإلكتروني.

وآنذاك، لم يفوت نتنياهو المناسبة دون أن يذكر الرئيس الكيني بأبرز مناسبات التعاون الأمني بين البلدين، بداية من عملية تحرير الرهائن في عنتيبي، إلى الهجوم على مركز «ويست غيت» التجاري، فقال مخاطبًا ضيفه الكيني إن «إسرائيل تقف جنبًا إلى جنب مع كينيا ضد أولئك الذين يدعون التحدث باسم الإسلام، فيما يقتلون الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال من جميع الأديان»، حسب موقع الخارجية الإسرائيلية على شبكة الإنترنت.

فرد الرئيس الكيني عليه قائلًا: «نحن في كينيا نرى إسرائيل صديقًا عزيزًا له مكانة خاصة جدًّا. الحرب على الإرهاب هي حرب دولية، ويجب علينا التعاون معًا لنهزمها».

بينما لخّص نتنياهو أطر التعاون بين البلدين بقوله: «ننوي بحث هذه الفرص والتحديات وما نقوم به في مجالات الأمن والزراعة والمياه والري والتقنيات وأي مجال آخر يتعلق بحياتنا الوطنية»، يبقى التعاون الاستخباراتي والأمني هو الأهم والأقوى، وفق «توماس أومولو»، مدير عام وزارة الخارجية الكينية.

إذ نقل موقع «ويكيليكس» الشهير وثائق تضمنت تصريحات لـ«أومولو»، يقول فيها: «يتبين أن إسرائيل هي شريك استراتيجي مهم، وأن للدولتين تعاونًا بعيد المدى في مجالات الأمن والاستخبارات على كل المستويات».

ونشرت صحيفة «هآرتس» اليومية معلومات مفادها أن كينيا اشترت الكثير من السلاح والخبرات العسكرية والأمنية الإسرائيلية، كما تلقى المئات من الجنود الكينيين تأهيلًا في إسرائيل على طرق مكافحة الإرهاب، أو قام مدربون إسرائيليون بتدريبهم في كينيا بحسب الصحيفة.

***

من لؤلؤة إفريقيا إلى جهنم المعادن: الكونغو، هكذا يلقبونها لما تحويه أرضها من كنوز تبدأ بالذهب والماس والكولتان والكتريت والنحاس والملاكيت واليورانيوم، تعالوا معًا وبهدوء نرصد ونرقب الأيدي الاسرائيلية هناك.

السؤال الذي يجب ان نبدأ به هو: كيف تقوم دولة بتصدير سلعة أو منتج وهي لا تملكه؟

الإجابة ستكون: مستحيل. ولكنها الحقيقة، إسرائيل تصدر الماس وهي لا تملكه في أراضيها والإجابة هي الكونغو.

ولكن النهب والسرقة والاغتصاب والتهريب ليس ببعيد عن الأيادي الصهيونية.

طائرة تهبط 3 مرات أسبوعيًّا في أرض شرق الكونغو، وتأخذ الذهب والماس بأبخس الأسعار ثم تنقله إلى تل أبيب مباشرة ومنها إلى أمستردام وبقية دول العالم!

هذا غير أن شركات الماس في الكونغو يهودية، وليست المسألة تقتصر على حسونة صاحب السوبر ماركت اليهودي الذي تجد عنده من الإبرة إلى الصاروخ.

ولا توجد سفارة إسرائيلية في قلب الكونغو، ولكن هناك سفير غير مقيم يأتي كل 3 أشهر مرة، بينما يوجد سفير كونغولي مقيم في تل أبيب.

كلمة السر تكمن في رجل الأعمال الإسرائيلي دان يجارتلر، الذي يسيطر على الماس في الكونغو ويحظى بمكانة الملوك والذي كان يعمل قنصلًا شرفيًّا للكونغو في إسرائيل، دان المجنون – هكذا يلقبه الإسرائيليون- خطط مع جنرالات الجيش الإسرائيلي لاحتلال الكونغو للسطو على الماس وثرواتها الأخرى، مقابل أدوات القتل التي يتقن الإسرائيليون صنعها ألا وهي السلاح.

وكان صاحب الامتياز الوحيد لتسويق كل الماس الخام الذي يتم استخراجه من الكونغو. ويملك الكثير من المناجم التي تقع في قلب أدغال الكونغو البعيدة بآلاف الكيلومترات عن العاصمة كينشاسا.

وهو مالك شركة «دي جي إن»، التي تعد اختصارًا لـ«دان جارتلر إنترناشيونال».

الثابت أن رجل الأعمال الإسرائيلي دان جارتلر يملك أنشطة واسعة في الكونغو، تشمل التعدين في مناجم النحاس والكوبلت وتجارة الماس، واستثمارات في مجال التدريب والطب والتشغيل، وأنشطة خيرية في مجال التدريب المهني ومكافحة الإيدز.

كلمة أخيرة

ليبقى السؤال الذي علينا أن نجد له إجابة صريحة وواضحة، علينا أن نقف أمام مرآتنا جيدًا، ننظر إليها بل ندقق النظر، نعود إلى الوراء، نتأمل الحاضر وننظر لما فعلته أيادينا، ونحاول أن نستكشف المستقبل.

ونسأل أنفسنا جيدًا: أين نحن؟ وما هو موقعنا من الإعراب في قارتنا السمراء؟

لا يمكن لي أن أودع وريقاتي دون أن أكتب تلك الكلمات التي اعتدت أن أختم بها كل الملفات التي ارتحلت عبرها إلى مختلف مناطق العالم الساخنة، لم يكن لي رفيق فيها سوى زميلي المصور الفنان حسام دياب الذي يكتب بعدساته ليجعلني أصور بقلمي، وورقة وقلم ووحده الحنين إلى المجهول.. «حاولنا أن نقترب من تفاصيل البشر وملامح الحجر، لنصحبك معنا في إحدى رحلاتنا إلى مجموعة دول حوض النيل، إن نجحنا فهذا كل ما نتمناه وإن فشلنا فليبق لنا شرف المحاولة».

الكاتبة الفائزة بجائزة "مصطفى وعلي أمين" للإنجاز الصحفي

رحلة عبر القارة السمراء؛ أرض سوداء حارقة ومحترقة، وجوه سمراء وقلوب ناصعة البياض، عالم مغلق ودنيا غامضة، حالة فريدة من نوعها، تركيبة معجونة بالشجن، ممزوجة بالمتناقضات. الرحلة إلى القارة الإفريقية مختلفة بكل المقاييس عن أي رحلة قامت بها الصحفية أمل سرور إلى أي مكان في العالم، وبقدر اختلافها واحتفاظها بمذاق خاص وخصوصية أشد، بقدر ما جاءت في أحيان محزنة بل مفجعة، وفي أخرى مليئة بالمفاجآت التي تصل إلى حد الصدمات!

تبدأ من أعالي النيل وإثيوبيا عند شلالات النيل الأزرق وبحيرة تانا ولحظة ميلاد النهر، ومنه إلى سد الألفية/ النهضة لنكشف أسراره التي باتت وكأنها أساطير إثيوبية، وإلى مدينة "مكاليٍ" التي تحوي سدودًا على أعالي النيل الأزرق تبنيها أيادٍ إسرائيلية. ووصولا إلى فيكتوريا العظيمة في " جنجا" الأوغندية، ثم الأراضي الكينية ومنها إلى التربة التنزانية لنرتحل منها إلى بلاد الكونغو.

أمل سرور: كاتبة وصحفية مصرية مرموقة، تخرجت من جامعة القاهرة عام 1991؛ ترأست قسم التحقيقات بمجلة نصف الدنيا، وعدد من الإصدارات العربية مثل "الشباب، المصري اليوم"، كما تولت الإشراف على صفحة "ابن بطوطة" المعنية بالكتابة عن الرحلات والأسفار بجريدة الأهرام المسائي.، كما عملت ضمن فريق جريدة الخليج الإماراتية ونشرت جزء من أعمالها الخاصة بأدب الرحلات على صفحاتها.
حصلت على العديد من الجوائز في مجال الصحافة والإعلام، مثل جائزة جامعة جون هوبكنز من الولايات المتحدة الأمريكية 1998؛ جائزة نقابة الصحفيين المصريين عام 2001 و2006؛ وجائزة مصطفى أمين وعلي أمين عن مجمل أعمالها: جائزة دبي للصحافة العربية 2006.

Cover design by: Alaa Elnewehy • Cover photo: Hossam diab

ISBN 978-977-821-313-3

9 789778 213133

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET